

"البحر الأبيض الكبير هو أمي؛ لأنه يضمني إليه بقوة، ويمسكني ولا يفلتني أبدًا"



سَحَر

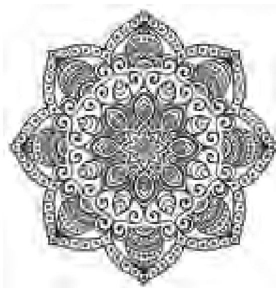
صلاح الدين دميرتاش

ترجمة: ريم داوود



قصص قصيرة مترجمة

www.JudBooks.com



سَـحَـر

www.JudBooks.com

سَحَر

تأليف: صلاح الدين دميرتاش

ترجمة: ريم داوود

تحرير ومراجعة: إيزيس عاشور

مراجعة لغوية: محمد حامد بكر

الطبعة الأولى: ديسمبر 2018

رقم الإيداع: 21361 / 2018

الترقيم الدولي: 9789773194512

الغلاف: إسلام علام



© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60 شارع قصر العيني - 11451 - القاهرة

ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

Originally published in the Turkish language under the title *SEHER*

Copyright © Dipnot Yayınları, 2017.

Copyright © Selahattin Demirtaş, 2017.

تابعونا لمعرفة أحدث إصداراتنا






@alarabipd

www.JudBooks.com

صلاح الدين دميرتاش

سَحَر

رواية من تركيا

ترجمة: ريم داوود



www.JudBooks.com



منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

بطاقة فهرسة

دميرتاش، صلاح الدين

سَحَر/ تأليف صلاح الدين دميرتاش، ترجمة ريم داوود.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2018،

ص؛ سم.

تدمك 9789773194512

1- القصص التركية

أ- داوود، ريم (مترجم)

ب- العنوان 894.35

www.JudBooks.com

1

الذَّكَر بداخله



www.JudBooks.com

www.JudBooks.com

ساحةُ سجننا أشبهُ ببئرٍ مُستطيلة. مُجرَّد أربعة أمتار عَرضًا، وثمانية أخرى طولًا؛ لكنها - مع ذلك - لا نهائية؛ إذ إنك تبدأ في تأمُّل جوانبها صباحًا، ولا تنتهي هذه الرِّحلة أبدًا، حتى مع حلول المساء. لا أحد يستخدم هذه السَّاحة، سوايَ أنا، و"عبد الله زيدان"، الضَّابط المُكلَّف بحراستي، لكن هذا لا يعني أنها مِلكنا، نفعل بها ما نشاء، لأننا نتشاركها مع كائنات أخرى، كالنَّمل، والعناكب. واقع الأمر أنها تتصرَّف كما لو كانت هي مالكة المكان، وكأن السِّجن قد بُنِيَ فوق بيوتها. في الحقيقة، هذا ما حدث على الأغلب. على كل حال، أتصرَّف أنا و"عبد الله" بمُنتهى التَّهذيب على الدَّوام، ما يجعل الأجواء في المكان تفيض بالاحترام المُتبادَل.

النَّمل مُنهمك في عملٍ جماعيٍّ دؤوبٍ، يلفت الانتباه. يشتغل بجدِّية لتحقيق هدف مشترك هو تأسيس حياة رائعة للجميع، في ركنٍ كئيبٍ من ساحة السِّجن. العناكب، من جهةٍ أخرى، كائناتٌ مختلفةٌ تمامًا، تتَّصف بالكسل، واللا مُبالاة. كما أنها غير اجتماعية. حاول مثلًا أن

www.JudBooks.com

تتجاذب أطراف الحـديث مـع إحـداها، سرعـان مـا سـتفقد العنكبـوت الخيط الذي يدور الحوار حولها.. حسنًا، إنها لا تفقـد الخـيط بالـضبط، لكنها تُسارع بتلقُّفه، والابتعاد به؛ لتحيكَ به شبكة لنفسها!

هناك كائناتٌ أخرى أيضًا، كالعـصافير. قـام زوجٌ مـن العـصافير ببنـاء عش لهما، في فتحةٍ أسـفل سـقف مبنـى الـسِّجن. اسـتمرَّا لأيـام عـدة في الطيران ذهابًـا وإيابًـا، حـاملَين في منقـاريهما أعـوادًا مـن القـشِّ، وقطعًـا صغيرةً من أغصان الشجر. بطبيعة الحال، قامـت الأنثـى بتحمُّـل العـبء الأكبر من العمل. اكتفى الذَّكَر بحمل غصنٍ صغيرٍ في منقـاره، بـين الحـين والآخر. أمضى بقيَّة الوقت قابعًا على الأسـلاك الـشائكة المواجهـة للعُـشِّ، مُنهمكا في تنظيف نفسه، وتنقية ريشه. لا أودُّ تشويه سُمعته. لعلَّه كـان يقوم بالجزء الذي اتَّفقا عليه مُسبقًا، فحسب.

www.JudBooks.com

استغرق منهما بناء العُشِّ نحو عـشرة أيـام. حاولنـا المـساهمة قـدر الإمكان، فكنا نترك لهما فُتـات الخبـز، وبعـض المـاء عـلى حافَّـة نافـذة الزنزانة. في أحد الأيام، اقتربت منِّي العصفورة، وقالت:

- باركَكَ اللـه يا أخي. لو اعتمدتُ على ذلـك الفاشـل، لمُتنـا جوعًـا. كنتُ سأضطر لتدبير مسألة الطعام، إلى جانب كل المسؤوليات الأخـرى الملُقاة على عاتقي.

باغتتني المفاجأة، وسألتها:

- هل تتحدَّثين إليَّ أنا يا أختي؟

- أجل. هل تفهمني؟

لم أصدِّق أذنيَّ. يبدو أنني لم أفقد "لغة العصافير"، والكلمات عديمـة المعنى التي كُنَّا نُردِّدها صغارًا. قُلتُ لها:

- لا عليـكِ يـا سـيدتي. نعلـمُ الجهـد الـذي تتطلَّبـه مـسألة البنـاء والانتقال، لذا رأينا ألا نُحمِّلكما هَمَّ توفير الطعام أيضًا.

www.JudBooks.com

أضفتُ:

- أخبرينا متى ما احتجتِ إلى شيءٍ، فنحن جيران على كل حال.

أجابت:

- شكرًا يا أخي..

في تلك اللحظة، خرج العصفور من العُشِّ صائحًا:

- ما الحكاية يا امرأة؟

- لا شيء. كنتُ فقط أشكر جارنا على الطعام.

واصل صراخه:

- هيَّا ادخلي!

يبدو أن العصفورة قرَّرت تجاهل تصرُّفه التَّافه، وانسحبت لداخل العُشِّ في هدوء. حدَّق بي شريكها بنظراتٍ مُتوعِّدة، ثم قال أخيرًا:

- ما الأمر؟ أي خدمة؟

www.JudBooks.com

- كلا يا أخي. لقد كنتُ أسأل زوجتك إن كُنتما بحاجة إلى..

قاطعني بحدَّة، ساخرًا:

- أصدِّقُكَ طبعًا! لا يهـم.. عـلى كـل حـال، إن كـان لـديك شيء تـودُّ قوله، فأخبرني أنا به.

- حسنًا يا أخي.

أضفتُ وأنا أغلق النافذة:

- نهارك سعيد.

بعد بضعة أيام، اكتشفنا أن العصفورة باضت. كانت هناك بيـضتان داخل العُشِّ. يبدو أن جيراننا سيُرزقان بتوأم.. توأمٍ غير مُتماثل، لكـنهما فرخان اثنان على أي حال. قُلتُ لنفسي:

- أرجو حقًّا ألا يُصبحا كأبيهما.

www.JudBooks.com

من الممنوع إدخال البيض النَّيِّئ إلى السِّجن. لا بأس بإدخال البيض المطبوخ، لكنَّ عيبه هو أنه لن يفقس أبدًا. بإمكانهم إصدار قوائم بالممنوعات العديدة، لكنهم سيقفون عاجزين عن مقاومة استمرار الحياة، كما حدث بالضبط. على فكرة، أدركتُ الآن فقط أن العصفورة كانت حاملًا بهاتين البيضتين، طوال فترة عملها في بناء العُشِّ. تلك الفترة التي أمضاها صديقنا المُبجَّل في التَّبختُر بخُيلاء، بوجهٍ مُتجهِّم.



في أحد الأيام، استيقظت صباحًا على جلبة من عُشِّ العصفورين. لم يكن موعد فتح الباب المُؤدِّي للسَّاحة قد حان بعد، لكنَّ النظر من داخل الزنزانة كان يمنحني رؤية أفضل. سرتُ باتِّجاه النافذة، لاستطلاع الأمر. تعالى الصراخ والصياح لدرجةٍ مزعجة. ارتفع صوت قائلًا:

- إلا الغاز المسيل للدموع! من فضلكم!

www.JudBooks.com

حين تسمع ذلك، سيتراءى لك أن شرطة مكافحة الـشغب تقـوم بفـضِّ مظاهرة احتجاج، أو شيء من ذلـك القبيـل، لكنهـا كانـت أربعـة عـصافير ذكور تُحيط بالعُشِّ. أخذت تُزقزق بشكلٍ عدائي على جارينا اللـذين راحـا يُقاومان الهجوم على عُشِّهما باستماتة، مُحاولين حماية بيتهما.

أدركتُ على نحوٍ ما أن هؤلاء الأربعة مُفتِّشون من "قسم بنـاء الأعـشاش". نفخ أحدهم ريشه، بطريقةٍ تشي بالسُّلطة التي يمتلكها، وصاح:

- لقـد بنيـتُما هـذا العُـشَّ دون إذنٍ، أو تـصريح. لا أودُّ سـماع أي مبررات. إمَّا أن نهدم العُشَّ..

سكت قليلًا، ثم أشار إلى البيض مُهدِّدًا، وقال:

- أو نأخذ أحد الفرخين غرامةً.

ردَّد الثلاثة الباقون، كالببغاوات:

- هذا صحيح. لا نُريد مُبرِّرات.. لا مُبرِّرات..

www.JudBooks.com

فردت الأنثى جناحيها على اتِّساعهما، في مدخل العُشِّ، وقالت:

- تأخذون بيتي؟ تأخذون طفلي؟

أردفت بتصميم:

- على جُثَّتي!

ردَّد ربُّ البيت:

- نعم.. هذا صحيح. على جُثَّتها!

كانت نبرات صوته غامضة بعض الشيء، فلم يُفهَم منها إن كان مُعترضًا حقًّا، أم أنه يطلب منهم أن يصنعوا فيه معروفًا.

اقترب رئيس فريق العصافير ومن معه من العُشِّ، وقال:

- لن أكرِّر كلامي ثانيةً. إمَّا أن تُطيعا القانون، وإمَّا أن أزجَّ بكُما في السِّجن.

ما إن سمعا كلامه، حتى التفتا نحوي. التقت أعيننا، وكأنما يسألانني:

www.JudBooks.com

- ما رأيكَ يا جار؟ ما الذي ينبغي علينا فعله الآن؟

نظرتُ إليهما بتمعُّن، وكأنني أقول:

- رأيي ألا تتراجعا عن موقفكما أبدًا.

صاحت العصفورة بشجاعة:

- لن أتراجع عن موقفي أبدًا، مهما كلَّفني الأمر!

قال الذَّكَر مُشجِّعًا، بصوتٍ هادرٍ:

- هذه امرأتي حقًّا! لا تتراجعي أبدًا.. أبدًا.

فجأة، هاجمت الأنثى فريق المسؤولين. ساد الهرج الأسلاك الشائكة للسِّجن. أنثى وحيدة تتصدَّى لأربعة مسؤولين! مشهدٌ أسطوريٌ لمقاومةٍ بطولية. تقافز الذَّكَر مُتوتِّرًا، وهو يستعطف المسؤولين:

www.JudBooks.com

- من فضلك، سيدي الكريم.. من فضلك.. هلَّا توقَّفت؟ دقيقة واحدة يا سيدي، لا داعي لهذه الفوضى. بيضتان اثنتان أكثر من حاجتنا، على كل حال.

التفتت العصفورة نحوه بنظرة ازدراء قوية، جعلته ينكمش داخل ريشه. دون مبالغة، استطاعت الأنثى بمفردها التصدِّي لأولئك المسؤولين الأربعة، ونجحت في طردهم وإبعادهم بعد صراع استمرَّ عشر دقائق. تمكَّنت من حلِّ المسألة، وحماية بيضها وعُشِّها، رغم شراسة الاعتداء الذي تعرَّضت له.

عاد الذَّكَر إلى مُمارسة أسلوبه المُعتاد. نظر إليَّ بتحدٍّ بالغ، وعجرفة، فقُلتُ له:

- لا تنظر إليَّ بهذه الطريقة يا "حمزة" (كنتُ قد قرَّرت أن أطلق عليه اسم "حمزة").

واصلتُ حديثي له:

www.JudBooks.com

- أوَّلًا، وقبل كل شيء، عليك بقتل الذَّكَر الذي بداخلك، يا صـديقي. هذا ما يجب عليك فعله حقًّا.

أجابني بنظرة باردة، خالية من المشاعر.

لا يزال يلتزم الصمت. في حال حدوث أي تطـوُّرات جديـدة، سـوف أحرص على كتابتها وإطلاعكم عليها.

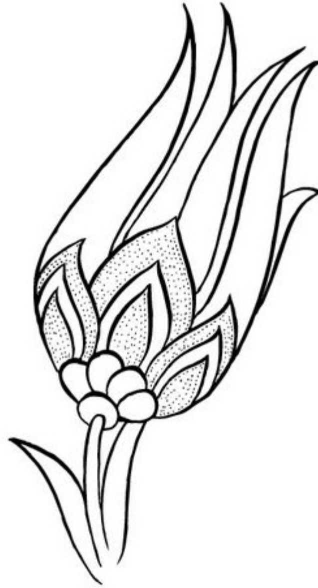


www.JudBooks.com

www.JudBooks.com

2

قصَّة "سَحَر"



www.JudBooks.com

www.JudBooks.com

في ليلة العيد، أعدَّت أبلة "سَحَر" بعـض الحنَّـاء. رسـمت شـقيقتاها الصغيرتان دوائر منها على كفوفهما، ثم غطَّت كل واحدة مـنهما كفَّيهـا بجوربٍ قديم، واستلقت على الفراش الذي بـسطته لهـما "سَـحَر" عـلى الأرض. جاورتهما، بعـد قليـل. شـعرت "بينـار"، و"قَـدَر" بحـماسٍ هائـل للعيد، حـال دون نـومهما. لم تـستطع "بينـار" التوقُّـف عـن التفكـير في فستانها الجديد. تخيَّلت نفسها به. إنه أول ثوبٍ جديـد تحـصل عليـه، فحتى هذه اللحظة اعتمدت دومًا على بقايا ملابس "قَـدَر" القديمـة. في هذا العيد، لم تحصل "قَدَر" على قطعة ملابس جديدة، وإنما على حذاء، وهو ما جعلها تشعر بالإثارة، كأختها تمامًـا. راحتـا تثرثـران، وتـضحكان، حتى ساعة متأخرة من الليل، تحت أغطيتهما، غير عابئتين بـأوامر أبلـة "سَحَر" وتأفُّفها. كانتا تُدركان جيِّدًا أن غضبها مُصطنع، وأنهـا لا تنـزعج منهما أبدًا. في نهاية الأمر، استـسلمتا لإحـساسهما بالإرهـاق، وغطَّتـا في نومٍ عميقٍ في حُضنها.

www.JudBooks.com

أمَّا ما تسبَّب في بقاء "سَحَر" ذاتها مستيقظة، فـأمرٌ مختلـفٌ تمامًـا. كانت قد وافقت على لقاء "خيري" في المقهى. يعمـلُ "خـيري" معهـا في مـصنع الغـزل والنـسيج. بـسبب يـوم "الوقفـة"، منحـت إدارة المـصنع عُمَّالها إذنًا بالخروج المبكـر. بيـنما كانـت تهـمُّ بالمُغـادرة، اقـترب منهـا بخجـل وطلـب منهـا أن تُقابلـه. في الحقيقـة، توقَّعـت "سَـحَر" هـذه الخطوة منذ فترة، فقد كانا يتبـادلان نظـرات مُختلـسة لـبعض الوقـت، وأصبحا هدفًا لنميمة زُملائهـما مـؤخرًا. العـمَّال في المـصنع سريعـون في التقاط مثل هذه المواقف.

ببلوغها عامها الثاني والعـشرين، أحـسَّت "سَـحَر" - كـما كـل مـن حولها - بتضاؤل فُرصها في الـزواج. بـدأت تخـشى أن يفوتهـا القطـار. تزوَّجت الفتيات اللاتي يُماثلنها في العُمر، قبـل حتـى بلـوغهنَّ الثامنـة عشرة، وأنجبن أطفالًا. تقدم لخطبة "سَحَر" عدد قليل مـن العرسـان، لكنهـا لم توافـق عـلى أيٍّ مـنهم. وحــده "خـيري" نجـح في جـذب اهتمامها. طويل، بشعرٍ متموج، وشفتين مُمتلئتين. يمكـن القـول إنـه

www.JudBooks.com

وسيم. تزاملا في العمل منذ نحو ثمانية أشهر، بعد انضمام "خيري" للمصنع، عقب انتهاء مدة تجنيده في الجيش. كان قد مرَّ على وجود "سَحَر" في المكان أربعة أعوام.

استيقظت الشقيقات الثلاث مبكرًا، على ضجيج محبَّب، فيما شرع بقيَّة أفراد الأسرة في بدء أنشطة هذا اليوم المتميز. توجَّه "غني"، والد "سَحَر"، للمسجد لأداء صلاة العيد، مصطحبًا ولديه "هادي" الذي يكبر شقيقته بثلاثة أعوام، و"إنجِن" الذي يبلغ الخامسة عشرة. ما إن غادروا، حتى هرعت "بينار"، و"قَدَر" إلى الحمَّام لغسل الحنَّاء التي جفَّت، عن أيديهما. وحدها صباحات العيد قادرة على جعل الأطفال في حالة مرح، في مثل هذه الساعة المبكرة من اليوم. غسلت "سَحَر" حنَّاءها أولًا، ثم عاونت الصغيرتين في فعل الشيء ذاته. اكتسبت أيديهن لونًا أحمرَ يشبه حبَّات الرمَّان الناضجة. استنشقت "سَحَر" رائحة الحنَّاء باستمتاع، ثم طبعت قُبلاتها على أكفِّهُن الصغيرة. كانت الأم "سُلطان" في المطبخ، تحاول الانتهاء من إعداد

www.JudBooks.com

الإفطار قبل عودة الرجال من المسجد. اتَّجهت "سَحَر" للمطبخ، لتقديم المساعدة، فيما سارعت الصغيرتان لارتداء ملابـس العيـد. أزيلـت فُـرُشُ النوم والأغطية من الحجـرتين، عـلى عجالـة، ووُضِـع الطعـام عـلى أرض إحداهما. لا تجتمع الأسرة بأكملها لتنـاول الإفطـار معًـا، إلا في الأعيـاد. عند عودة الرجال من المـسجد، تبـادل الجميـع التهـاني. في البـدء، قبَّـل الجميع يد "غني"، بمن في ذلك زوجته "سُلطان". في المقابل، لم يقم هـو بتقبيل واحتـضان أحـد، سـوى الـصغيرتين "بينـار" و"قَـدَر"، قبـل مـنحهما العيديات. هنَّـأ جميـع الأبنـاء أمهـم، بعـد ذلـك، وتبـادلوا معهـا القـبلات والأحضان. كرَّر الأشقاء الخمسة الأمر ذاته مع بعضهم، ونجحت الطفلتان في أخذ مزيد من العيديَّات، مـن "هـادي" هـذه المـرَّة. ورغـم علمهـا بـأن "إنجِن" يمقت هذه المواقف، أصرَّت "سَحَر" على احتضانه. استسلم صامتًا، دون أن يتملَّص من بين ذراعيهـا، كـما اعتـاد أن يفعـل في الأيـام العاديـة. يحب "إنجِن" أبلة "سَحَر" من كل قلبه، وهي بدورها لا تكفُّ عن تدليله.

www.JudBooks.com

تناولت كيس نقودها، وأعطته عيديَّته. تردَّد في أخذها، في بـادئ الأمـر، لكنه استسلم لإلحاحها، ثم احتضنها من جديد. عقب ذلك، جلس أفراد الأسرة حول أطباق الطعام وهم يُثرثرون بسعادة.



بحلول الظهيرة، فرغوا من إتمام الزيارات المُعتـادة للجـيران، وتفـرَّق رجال الأسرة لمُمارسة شؤونهم الخاصَّة. لم يعد يفصل "سَحَر" عن موعـد "خيري" سوى ثلاث ساعات فقط، ومع ذلـك لم تخـبر أمهـا بعـد بنيَّتهـا للخروج. تحمل "سُلطان" حُبًّا عميقًا لجميع أبنائها، إلا أن "سَحَر" تحتلُّ مكانةً خاصَّةً في قلبها، فهي ليست ابنتهـا فقـط، بـل صـديقتها، وكاتمـة أسرارها أيضًا، ولذلك تتساهل معها أكثر من الباقين بكثير. حـين أعلنـت "سَحَر" بأنها سـتخرج، لم تُبـدِ الأم اعتراضًـا، واكتفـت بتوصـيتها بمُلازمـة الحذر، دون سؤالها عن أي تفاصيل. كانت تفهمهـا جيِّـدًا، واسـتطاعت تخمين المسألة بأكملها.

www.JudBooks.com

شهد المقهى المقابل لمبنى محكمة "أضـنة" لقـاء "سَـحَر" و"خـيري". حين دخلتْ، وجدته يجلس وحيدًا. قام واقفًا عند رؤيتها، وتناول يـدها في كفِّه:

- مرحبًا.. عيد سعيد.

أجابته بصوتٍ مُرتعش:

- شكرًا. عيدك سعيد.

تصبَّب العرق منها، من شدَّة التوتُّر. إنهـا المـرَّة الأولى التـي تلتقـي فيها شابًّا. ليس لديها أدنى فكرة عمَّا يجـب قولـه، أو فعلـه. لـسنوات، انحصرت حياتها في الذهاب إلى العمل والعودة منه إلى البيـت. كانـت تـستمع إلى زميلاتهـا وهـن يتحـدَّثن عـن مواعيـدهن الغراميـة، لكـن تجربة الوضع بنفـسها أمـرٌ مختلـفٌ تمامًـا. عـلى عكـس "سَـحَر"، بـدا "خيري" هادئًا ومتماسكًا. تحدَّث معهـا ببـساطة في أمـورٍ مختلفـة، إلى أن استعادت نبضات قلبها المُتسارعة إيقاعهـا المُـنتظم المُعتـاد. تكلَّـما

www.JudBooks.com

عن عائلتيهما، وماضيهما. مـع اسـتمرار الحـوار، تـسلَّل الارتيـاح لـنفس "سَحَر"، وبدأت تـشعر بالطمأنينـة وكأنهـا تعـرف "خـيري" منـذ أعـوام طويلة. بطبيعة الحال، يعـود الفـضل في ذلـك لــ"خـيري". كلـما اسـتمر حديثه، أحسَّت نحوه بانجذابٍ ساحِر. أدركتْ أنه يعلم جيِّدًا ما يفعل. لا بأس بذلك، فهو أمرٌ متوقَع، لأنه رجل في نهاية الأمر، وقـد خـرج مـع عديد من الفتيات قبلها على الأغلـب، لكنـه معهـا الآن، وحـريص عـلى التلطُّف معها وإسعادها، وهذا هو ما يهـمُّ. حـين ينهمـك في الكـلام، يحني "خـيري" رأسـه، مانحًـا "سَـحَر" الفرصـة لتأمُّلـه. عنـدما غـادرا المقهى بعد قرابة ساعتين، كانت قدما "سحر" تلمـسان الأرض بالكـاد لفرط سعادتها. قالت لنفسها إن هذا هو الحب، بكـل تأكيـد. احتـلَّ "خيري" كيانها تمامًا، فلم تفكـر في سـواه طـوال سـيرها إلى البيـت في "شاكر باشـا". احمـرَّ وجههـا، بـين الحـين والآخـر، وأحـسَّت بـدُوارٍ في رأسها. لكنها حين أوشكت على الاقتراب من المنزل، تبدَّل فرحها خوفًا. لو علم والـدها و"هـادي" بـشأن موعـدها الغرامـي، لـسلخا جلـدها

www.JudBooks.com

دون رحمة. عليها الانتباه والتزام الحذر والسرِّية التامَّـة. لا تجـرؤ عـلى مصارحة أحد بسرِّها، ولا حتى أمها. ليس الآن على الأقل. حـين وصـلت إلى البيت، لم يكن الرجال قد عادوا بعد. تعمَّدت أمها عدم سؤالها عـن شيء. كانت متأكدة من أن "سَحَر" سوف تـصارحها بكـل التفاصـيل، في الوقت المناسب.

في تلك الليلة، أعدَّت الفُرُش للنوم في ساعة مبكرة عن المُعتـاد. مـا إن وضعت "بينار" و"قَدَر" رأسيهما على الوسـادة، حتـى اسـتغرقتا في النـوم، عقب كل الإثارة التي تعرَّضتا لها طوال سـاعات اليـوم. اسـتلقت "سَـحَر" بجـوارهما، وبقيـت مـستيقظة لـساعات وهـي تفكـر في "خـيري"، وفي مستقبلهما معًا، وفي حفل زفافهما، وفي فـستان الزفـاف. تخيَّلـت بيـتهما، والأثاث الذي سيشتريانه. تخيَّلت نفسها فيـه، هـي و"خـيري" بمفـردهما. احمرَّ وجهها بشدَّة. استسلمت للنوم، في نهاية الأمر.

www.JudBooks.com

صباح اليوم التالي، اجتمعت الأسرة حول طعام الإفطار، مـن جديـد؛ لكن المرح الذي ساد أجواء اليوم الأول من العيـد تـلاشى بعـض الـشيء، وإن لم ينتهِ تمامًا. تجنَّبت "سَحَر" النظر في أعين أفراد أسرتها، خوفًا مـن انكـشاف سرِّهـا. تجنَّـب اثنـان آخـران التقـاء نظـراتهما، وهـما "غنـي" و"هادي". في الليلة السابقة، التقيـا صـدفةً في مـاخور "أضـنة"، لكـنهما سرعان ما ابتعدا عن بعضهما، وكأن أحدهما لم يرَ الآخر، لكنهما يدركان بطبيعة الحال أنهما شاهدا بعضهما. إنه اتفاقٌ غير مُعلَن، يعرفه جميع الرجال في هذه المواقف. لكنهما - مع ذلـك - جلـسا دون تبـادل كلمـة واحدة. كان "هادي" قد أتمَّ خطوبته لإحـدى الفتيـات، منـذ عـام، وأي حديث عن تفاصـيل ومـصاريف عُرسـه في الـصيف المقبـل كـان كفـيلًا بإثارة التوتُّر بين الرجلين في أي وقت.



عند عودتها للمصنع، عقـب انتهـاء إجـازة العيـد، تـسارعت دقَّـات قلب "سَحَر". طوال ذلك الصباح، لم تـستطع منـع نفـسها مـن اخـتلاس

www.JudBooks.com

النظرات لـ"خيري". في وقت الغداء، جلس الاثنان في الكافيتيريا معًا. قارنته بالرجال الآخرين في المصنع، فغمرتها السعادة لحَظِّها الرائع. "خيري" هو الأكثر طيبةً ووسامةً. من بين جميع فتيات المصنع، اختارها هي دون سواها. تشعر بأنها بطلة حكاية أسطورية. تمنَّت لو أن الزمن يقف بها في هذه اللحظة تحديدًا. في نهاية اليوم، غادرا معًا. قال لها بخجل وهي تودِّعه:

- سوف يمرُّ بي بعض الأصدقاء بسيارتهم الآن، ويمكننا توصيلك للبيت، إن أحببتِ.

أجابته:

- كلَّا، لا بأس. لا أودُّ إزعاجكم.

- لا مشكلة على الإطلاق، حيُّكم في طريقنا على كل حال.

سمحت "سَحَر" لنفسها بالاقتناع..

- حسنًا.. لكن أنزلوني في أوَّل شارعنا.

www.JudBooks.com

بدا "خيري" مُتفهِّمًا:

- بالتأكيد. سنُنزلكِ حيث ترغبين.

حين ركبا السيارة، حيَّا "خيري" أصدقاءه، دون أن يهتم بتعريف "سَحَر" بهم. تبادل الرجلان اللذان يجلسان في المقدمة كلمات هامسة، بين الحين والآخر. قال "خيري" لـ"سَحَر" بضع كلمات معدودة، ولم يخبر قائد السيارة بالطريق الذي ينبغي عليهم قطعه للوصول إلى بيتها. حين وصلوا إلى مَخرج الطريق الرئيسي في "بالجالي"، كان الظلام قد حَلَّ. استبدَّ القلق بـ"سَحَر"، فصاحت:

- أنتم تسيرون في الاتِّجاه الخاطئ! أنا أسكن في "شاكر باشا"..

قال "خيري" مُهدِّئًا:

- لا تخافي. سنتجوَّل بالسيارة حول السَدِّ لبعض الوقت، ونشمُّ هواءً نقيًّا، ثم نصطحبكِ إلى البيت. مُجرَّد تغيير! ما رأيكِ؟

- حسنًا..

www.JudBooks.com

أضافت بقلق:

- ولكن علينا ألا نتأخَّر، فأهلي ينتظرونني في المنزل.

بعد قليل، اندفعت السيارة بقوَّة في المنحنى المُؤدِّي لطريق الغابـة. تزايدت دقَّات قلب "سَـحَر". واصـلت الـسيارة انـدفاعها داخـل الغابـة لبعض الوقت، قبل أن تتوقَّف فجأة. قال "خيري":

- لنخرج. هواء الغابة مُنعش.

ردَّت "سحر" وقد تملَّكها الخوف:

- كلَّا. لا أريد. عليَّ أن أعود للمنزل.

قبض "خيري" عـلى ذراعهـا بـين أصـابعه بإحكـام، ثـم جرَّهـا خـارج السيارة، وهو يقول:

- لماذا إذًا أتيتِ معنا من البداية؟

لم تستطع تمييز هذا الصوت.. إنه ليس "خيري" الذي تعرفه.

www.JudBooks.com

غادر الاثنان الآخران السيارة، واقتربا منهما. أمسك بها أحدهما مـن الخلف، بيـنما جـذب الثـاني شـعرها بقـوَّة. تعـاون "خـيري" معهـما في إسقاطها أرضًا. ثبَّت أحدهم قدميها، وأمـسك آخـر بمعـصميها. أحـسَّت بالاختناق. حاولت الصراخ، لكن صـوتها بقـي مُحتبـسًا. توقَّفـت الـدنيا حولها. توقَّف كل شيء. الوحيد الذي كان يتحرَّك، هو "خيري".



استعادت وعيها على جانب الطريق. خُيِّل إليها في بـادئ الأمـر أنهـا في حلم. حاولت الاستيقاظ، لتكتـشف أنهـا ليـست نائمـة مـن الأسـاس. ثيابها مُمزَّقة، والدُّم يسيل على ساقيها. قالت لنفسها:

- لا بد أن سيارة صدمتني.

لا شك أن هذا هو ما حدث، فمن غير المعقـول أن مـا تتـذكَّره هـو الحقيقة. لقـد اصـطدمت بهـا سـيارة.. وبقيَّـة الـصور العالقـة بـذهنها ليست سوى كابوس. هكذا راحت تُطمئن نفـسها. الـشارع هـادئ. إنهـا

www.JudBooks.com

في منطقة صناعية، لكنها لا تعرف أين بالـضبط. تـسير باتِّجـاه أصـوات السيارات، إلى أن تصل إلى الطريق الرئيسي. تدرك عندها فقط أنها على مقربة مـن شـارعها. تُواصـل الـسير، محاولـةً عـدم التفكـير في أي شيء. فتحت "سُلطان" البـاب. مـا إن رأت حـال "سَـحَر"، حتـى انطلـق منهـا عويلٌ مُتألِّم. تلمُّ ابنتها بين ذراعيها:

- ما الذي حدث لكِ؟ ما الأمر يا حبيبتي؟

راحت تُردِّد ذلك، مرَّةً تلو أخرى. علقت الكلمات بحنجـرة "سَـحَر"، وأبت مُغادرتها، فلم تستطع التَّفوُّه بشيء.

لم يكن رجال البيـت قـد عـادوا بعـد مـن دُكَّـان الخـضروات الـذي يُديرونه في السوق. إنهم يخرجون في سـاعةٍ مبكـرة، ولا يعـودون إلا في ساعة متأخرة من الليل. راقبتْ "بينـار" و"قَـدَر" الموقـف بـأعين ملؤهـا الخوف. تابعتا أمهما وهي تقود أختهما إلى الحـمَّام. نزعـت "سُـلطان" الثياب عن ابنتها برفـقٍ بـالغٍ. حـين رأت جـسد "سَـحَر" المُغطَّـى بالـدم

www.JudBooks.com

والكدمات، انسابت دموعها دون توقُّف. دفنت رأسـها في شـعر ابنتهـا، وانخرطت في بكاءٍ مريرٍ. اختلطت دموعها بالماء الـساخن الـذي راحـت تـسكبه فـوق ابنتهـا. حمّمتهـا بـدموعها. مـشَّطت شـعرها طـويلًا، ثـم غسلت جسدها من جديد. بـدأت "سَـحَر" تـستعيد وعيهـا بمـا حولهـا، أخيرًا. انطلقت منها صرخة طويلة. أوَّل صوت يصدر عنها منذ سـاعات. أدركت الأم والابنـة المـصير الـذي ينتظـر الأخـيرة، والـذي لا مفـرَّ منـه. تشبَّثت كل منهما بالأخرى، وهما تبكيان بكاءً حارًّا.

جفَّفـت "سُـلطان" جـسد ابنتهـا، وألبـستها "بيجامـا". أخـذتها إلى الفراش، وغطَّتها باللحاف. جلست بجانبها، وهي تمسح شـعرها بكفِّهـا، وتُـردِّد بعـض الآيـات، والأدعيـة. قبعـت "بينـار" و"قَـدَر" في ركـنٍ مـن الحجرة، تُتابعان الموقـف. نامـت "سَـحَر" بـين ذراعـي والـدتها، كطفـلٍ رضيعٍ. المشاعر الوحيـدة التـي ارتـسمت عـلى ملامحهـا هـي الإرهـاق، والتعب الشديد. قامت "سُلطان" من مكانها، بلُطـف، وغـادرت الغرفـة مصطحبةً الصغيرتين معها.

www.JudBooks.com

بعد قليل، تعالت الدقَّات اللحوحة على البـاب. عـاد رجـال البيـت. أبلغهم الجيران بضرورة العـودة لأن الأمـور ليـست عـلى مـا يُـرام، كـما يبدو. كان بعضهم قد لمح "سَحَر" في الشارع، وقـد غطَّاهـا الـدم، بيـنما سمع البعض الآخر أصوات صراخ وعويل قادمة من بيتهم. ذُعِر الرجال، فسارعوا بالتَّوجُّه للمنزل. سأل "غني":

- ما الذي حدث لـ"سَحَر"؟

حاولت "سُلطان" التَّملُّص من الإجابة، واكتفت بالقول:

- إنها نائمة الآن. إنها بخير.

قال بحدَّة:

- أخبريني ما الذي حدث.

رفعت "سُلطان" رأسها، وواجهت نظراته، وهي تقول:

- غير مهم. انتهى الأمر.

www.JudBooks.com

تجمَّد "غني"، و"هادي" في مكانيهما، في ذُهول، بينما حاول "إنجِـن" فهم الوضع الغامض. التفت "غني" نحو "هادي":

- اتَّصل بعمَّيك. أبلغهما بأن يأتيا حالًا.

توسَّلت "سُلطان":

- الوقت متأخر. لا تتَّصل بأحد الآن. فلننتظر حتى الصباح. "الصباح رباح"، كما يقولون..

- لا جدوى من الانتظار، فلن يغيِّر شيئًا مما ننوي فعله.

ارتمت "سُلطان" على قدمي زوجها:

- هي لم ترتكب جُرمًا يا "غني". طفلتي المسكينة بريئة. سامحها يـا "غني".. أتوسَّل إليك..

لكن زوجها لم يتزحزح عن موقفه.

www.JudBooks.com

يقطُن عمَّا "سَحَر" الكبيران على مقربةٍ منهم. لم يستغرق وصولهما طويلًا. أغلق الرجال الباب على أنفسهم في إحدى الحجرات، وناقشوا المسألة. لازمت "سُلطان" ابنتها. بكت في صمت، وهي تمسح على شعرها، وتستنشق رائحتها الحلوة.

انصرف العمَّان دون كلمة واحدة. ذهب "هادي" إلى الغرفة التي نامت فيها "سَحَر"، وقال لوالدته:

- عليكِ مُغادرة الغرفة يا أمي.

وقفت "سُلطان" في مواجهة ابنها:

- لن أغادر. لن أتخلَّى عن ابنتي. خذوني معها أينما تأخذونها.

- فلتبقِ خارج الموضوع يا أمي! المسألة لا تخصُّك على الإطلاق. نحن من قُضيَ على شرفنا.

صاحت "سُلطان" بغيظٍ:

www.JudBooks.com

- اللعنة على شرفكم! ابنتي بريئة.. إيَّاكم أن تمسُّوها بسوء.

كانت "سَحَر" لا تزال تـشعر بالـدُّوار. اسـتيقظت، والتقـت نظراتهـا بنظرات أخيها. امتلأت أعيـنهما بالـدموع، لكـن ملامحـه بقيـت قاسـية ومُتحجِّرةً. تعلم "سَحَر" ما ينتظرها. وقفت ببُطءٍ، واتَّجهت إلى الحمَّام. استبدلت ثيابها، وعادت لـتجلس بجـوار أمهـا. طلبـت مـن شـقيقها أن يمنحها وقتًا للوداع. غادر "هادي" الحجـرة. تبادلـت وأمهـا عناقًـا قويًّـا. لشدَّة بُكائهما، لم تقـوَ أي مـنهما عـلى التَّفـوُّه بكلمـة واحـدة. شـعرت "بينار"، و"قَـدَر" بخـوفٍ بـالغ، وانهمـرت دمـوعهما في هلـع. أخـذتهما "سَحَر" في حضنها، قبَّلتهما كثيرًا وهي تستنشق رائحتـيهما. قالـت لهـما أخيرًا:

- لا تنسيا أبلة.. اتَّفقنا؟

لم تفهم الصغيرتان ما يجري، لكنهما أحسَّتا بخطورة الموقف. تعلَّقتا بأختهما، رافضتين تركها. صاح الأب:

www.JudBooks.com

- هيَّا! هذا يكفي. يجب أن نذهب الآن.

اعترضت "سُلطان" طريق زوجها، وحالت دون اقترابه من ابنتهما، وهي تصرخ:

- على جُثَّتي!

صفعها "غني" صفعة قوية، أسقطتها أرضًا. أمطرها باللعنات، وأمرها بإفساح الطريق. اندفعت "سُلطان" نحوه من جديد، وتشبَّثت بقدميه، وهي تصيح وتبكي، ولكن دون جدوى. لم يصغِ إلى توسُّلاتها. أومأ "غني" برأسه تجاه الباب، مُتجنِّبًا النظر إلى ابنته. أطرقت "سَحَر"، وخرجت من الباب. كانت الشاحنة تقف أمام البيت. ركبوها واحدًا واحدًا. تلصَّص الجيران من وراء ستائر نوافذهم، وتابعوا "سَحَر" وهي تُؤخذ بعيدًا.

www.JudBooks.com

التزم الجميع الصمت، طوال الطريق. جلست "سَحَر" بجوار "إنجِن" في المقعد الخلفي، وظلَّت تمسك يده بقوَّة. لولا خوفه من أبيه، لأحاط "إنجِن" كتفي أخته بذراعه. أوقفوا الشاحنة بمُحاذاة حقلٍ خاوٍ على أطراف المدينة. سبقتهم "سَحَر" في الخروج، وانتظرت الباقين. لمع وجهها تحت ضوء القمر.. جميلًا وجليلًا. ساروا في خطٍّ مستقيمٍ باتِّجاه منتصف الحقل. "غني" أوَّلًا، تتبعه "سَحَر"، ثم "هادي"، ومن ورائه "إنجِن". كان جليدُ "أضنة" قد جعل الأرض صُلبةً. لم يُسمَع صوت، عدا وقع أقدامهم على الأرض القاسية. حين توقَّف الأب، توقَّف أولاده وراءه. التفت نحوهم، وأخرج مسدسه من حزامه، ثم ناوله لـ"إنجِن". فقدت "سَحَر" هدوءها للمرَّة الأولى. أمالت رأسها جانبًا، وراحت تتوسَّل إليه:

- بابا.. من فضلك.. أرجوك.. لا تفعل هذا بـ"إنجِن". إنه مجرد طفل، لن يستطيع تحمُّل السِّجن. بابا.. دعني أنا أفعل ذلك. سأضحي بنفسي. لا تُضحِّ بـ"إنجِن" من أجلي يا بابا.

www.JudBooks.com

قاوم "غني" دموعه، وقال بتصميم مُخاطبًا ابنه الأصغر:

- هيَّا. خذه يا بُني. هيَّا يا "إنجِن". لِتُنهِ هذا الأمر.

اتَّسعت عينا "إنجِن" من الخوف والصدمة. مدَّ يده، وتناول المسدس من أبيه. إنه بارد. "إنجِن" ولدٌ صغير. المسدس ثقيل. ارتجفت يده. قال "هادي" آمِرًا:

- اركعي على رُكبتيكِ.

حاول السيطرة على صوته المُرتعش. قبل أن تقع على الأرض، قالت "سَحَر" لأبيها:

- من فضلك.. دعنِ أقبِّل يدك يا بابا.

مدَّ "غني" يده. لثَمتها "سَحَر"، ثم رفعتها إلى جبينها:

- سامحني، واغفر لي خطيئتي يا أبي.

قال "غني" بصوتٍ مُتحشرج:

www.JudBooks.com

- أسامحكِ يا ابنتي. سامحيني..

- أسامحك.

التفتت صوب "هادي"، وعانقته، طالبةً منه المغفـرة. ظـلَّ واقفًـا في سكون، دون كلمة واحدة. أخيراً، احتضنت "إنجِن". وضع المسدس عـلى الأرض، وتشبَّث بها بقوَّة. قبَّلته "سَحَر" مرارًا، وهي تملأ صدرها برائحـة شَعره. راحت تستنشقها بعُمقٍ ونَهَمٍ.

عاودت "سَـحَر" الجلـوس عـلى رُكبتيهـا. أمـسك "إنجِـن" المـسدس، وصوَّبه إلى مؤخرة رأسها. اهتزَّ المسدس في يده. قالت له:

- "إنجِن".. حبيبي "إنجِن"، لا تخف يا صغيري.

استطردت مُشجِّعةً:

- لا تخف أبدًا، من أي شيء، ولا من أي أحد. اهتمَّ بنفسك في السِّجن.

أغمض "إنجِن" عينيه بقوَّة، وصاح:

www.JudBooks.com

- أبلة "سَحَر"..

اختلط صوته بأزيز الرصاصة التي انطلقت من المسدس. طار سِربٌ مـن الغربان، من على أشجار الحُور البعيدة، عند سماع صوت الرصاصة. سقطت "سَــحَر" عــلى وجههــا. انــساب دمهــا الــدافئ عــلى الأرض المُتجمِّــدة في "تشوكوروفا". سالَ فوقها، ممتزجًا بالحنَّاء التي تصبغ كفَّيها.

في إحدى الأمسيات، سرق ثلاثة رجال أحلام "سَحَر"، داخل الغابة.

في إحدى الليالي، أنهى ثلاثة رجال حياة "سَحَر"، داخل حقلٍ مهجورٍ.



www.JudBooks.com

3

الخادمة "نازان"



www.JudBooks.com

www.JudBooks.com

تلك السيارة الـ"رينو" الكبيرة التي ترونها هناك.. إنها من حَيِّنا. كـل مَن فيها من حَيِّنا أيضًا. إنهـم أبنـاء الخالـة "حليمـة". ذاك الـذي يقـود السيارة هو "يوسف"، أكبرهم. ثلاثة من الركاب، إخوتـه. يركـب معهـم "محيي الدين"، ابن عمِّهم. ذلك التَّافه الذي يجلس في الخلف هو ابنـه "سليمان". يعملون معًا في تركيب الجبس المُزخرف على الأسـقف. تلـك مُعـدَّاتهم في الخلـف. يتعـاونون معًـا بـشكلٍ جيِّـدٍ، ويعملـون بمهـارة كالعفاريت!.. أعني حـين يجـدون عمـلًا، بـين الحـين والآخـر، فمهنـتهم ليست من النوع الثابت، أو الـدائم، كـما تعرفـون. يتعاقـد النـاس مـع "يوسف"، عادةً، لأنه أكثر إخوته وأقاربه شُهرةً بين سُكَّان الضَّواحي. إنه شاب مـستقيم، وعاقـل. تـرك المدرسـة في المرحلـة الإعداديـة. خطيبتـه "سُهَيلة" من حيِّنا أيضًا. والدها هـو "أورهـان"، البـوَّاب المُتقاعـد. عـلى فكرة، لقد أضاءت إشارة المرور بـاللون الأخـضر. هـا نحـنُ ننطلـق مـن جديد! يلمح "سليمان" الباص الذي أركبه، ويراني، فيُلوِّح لي بيده. ألـوِّح له بدوري.

www.JudBooks.com

اسمي "نازان". عُمري ثماني عشرة سنة. أنهيتُ المرحلة الإعدادية، ثم تركتُ التعليم. لديَّ أختان أصغر منِّي. أمي هي التي توَّلت تربيتنا. كان أبي يعمل لصالح الحكومة، هنا في "ماماك" بـ"أنقرة". مات وأنا في الخامسة. يقولون إنه كان ميكانيكيًّا من الطراز الأوَّل. في أحد الأيام، استلقى أسفل باص لإصلاح مُحرِّكه، ثم حدث ما حدث! حين مات، كانت أمي حاملًا في الشهر الثامن. ترك لنا معاشًا شهريًّا، وعددًا كبيرًا من المجلات المتخصصة في السيارات. كان شغوفًا بالسيارات وبالمجلات الخاصة بها. لم يُفوِّت عددًا واحدًا منها، أبدًا. حين كان يرى صورة لأي سيارة في الصحيفة، يعمد إلى قصِّها والاحتفاظ بها. "موستانج" سوداء كانت سيارة أحلامه. علَّق "بوستر" لها على جدار المطبخ. لطالما قال لأمي إنه سيشتري لنفسه سيارة، في يومٍ من الأيام. لم تنزع "بوستر" الـ"موستانج" عن الجدار، أبدًا. لا يزال مُعلَّقًا في مكانه. وهكذا، نشأتُ وأنا أقرأ مجلات أبي. إنها مصدر عشقي للسيارات.

www.JudBooks.com

تبيَّنَ لاحقًا أن معاشه لا يكفي تدبير أمورنا، ولذلك بدأت أمي تعمل خادمةً في عددٍ من البيـوت. عنـدما أنهيـتُ المرحلـة الإعداديـة، بـدأتُ أصاحبها لأساعدها. حين كنت أذهب معها، كُنَّا نترك "نبيلة"، و"جُلبَهار" مع جارتنا "هـسرت". مـا إن أجـدتُ القيـام بمختلـف الأعـمال المنزليـة، بمفردي، حتى أخبرتُ أمـي بـأن دوري قـد حـان للعمـل، وأن عليهـا ألا ترهق نفسها. وهكذا مرَّ على عملي في تنظيف البيوت نحو عـام كامـل الآن.

نعـيش في مـا يـسمِّيه النـاس "مُـدُن الـصفيح"، في حـيٍّ عـشوائيٍّ بـ"ماماك". جميعنا نعرف بعضنا هنا، وكلنـا فقـراء، لا أحـد أفـضل، أو أسـوأ مـن الآخـرين. لا نـشعر باختلافنـا، إلا حـين نـذهب إلى وسـط المدينة. هناك، تصفعنا الحقيقة عـلى وجوهنـا بقـسوة. أركـب البـاص للوصـول إلى عمـلي. أجلـس دائمًـا بجـوار النافـذة. أحـبُّ مـشاهدة السيارات ومَن بداخلها، وخصوصًا عندما يجبرنـا الازدحـام المـروري أو الإشـارة الحمـراء عـلى التوقُّـف. مـثلًا، الـشاحنة الــ"فـارجو 86" التـي

www.JudBooks.com

تقف بجانبنا الآن، مِلك للعم "حيدر". إنـه يملؤهـا بعديـد مـن الأشـياء المختلفة، عندما يستأجره أحد لنقل حاجاتـه وممتلكاتـه. يركنهـا عـادةً أعلى الطريق، على زاوية الشارع الرئيسي. إنـه مـن مدينـة "تـشورَم" في الأساس. لديه ابنتان تدرسان في الجامعة. زوجته، الخالة "بسيمة"، مريـضة وطريحة الفراش منذ أن تعرَّضـت لحـادث اصـطدام قبـل ثـلاث سـنوات. هرب السائق الذي صدمها، تاركًا إياها لتموت في الطريق. اعتُقِلَت إحـدى الفتاتين في العام الماضي، في مظاهرة طلابيـة لإحيـاء ذكـرى مجـزرة فنـدق "ماديماك". ها هو ضوء إشارة المرور يتحوَّل إلى اللون الأخضر.

يمكنك دومًا أن تعرف الناس والسيارات، الذين ينتمون لجانبنا مـن المدينة. تجمع الاثنين أمورٌ مشتركة: استهلكهم العمل المتواصل، تمامًـا. كلاهـما مُتعَـب ومُرهَـق، ولـه هيئـة خـشنة تـشي بـالفقر الـشديد. السائقون يقبضون عـلى مقـاود الـسيارة ذات الأصـباغ المتآكلـة بكلتـا اليدين، بحذرٍ بالغ، لأنها مصدر قُوتِهم. لكنك حـين تـصل إلى الطريـق

www.JudBooks.com

الرئيـسي، تلاحـظ تغـيُّر الـسيارات والرُكَّـاب. تبـدأ فجـأة في مـشاهدة الموظفين ورجال الأعمال، والسيدات اللاتي يقُدن سياراتهن. تشاهد أيضًا شبانًا يتمتعون بالوسامة. السيارات هنـا أحـدث مـن مثيلاتهـا في حيِّنـا. انظر مـثلًا للرجـل والمـرأة داخـل سـيارات الـ"باسـات" الرماديـة التـي تجاورنا. لا بدَّ أن لكلٍ منهما وظيفة. ربما تعمل المرأة في بنك، أما الرجل فيبدو مديرًا في مكانٍ ما. سوف يقوم بتوصيل المرأة إلى البنك أولًا، قبـل توجهه لعمله. إنهما متزوجان منذ وقت طويـل، كـما يبـدو. يـتراءى لي أنهما يركبان معًا، مضطرين. يتبادلان كلمات قليلة، بـين الحـين والآخـر، دون أن ينظر أحدهما للآخر. لقد استمرَّ زواجهما حتـى هـذه اللحظـة، في رأيـي، مـن بـاب الواجـب فقـط. لعلهـما أخـذا قرضًـا لـشراء هـذه السيارة، ويشتركان معًا في دفع أقساطها؛ لكـن الرجـل يتـصرَّف كـما لـو كانت مِلكه وحده فقط. هـذه هـي ميـزة سـيطرتك عـلى المقـود، كـما أظن.

www.JudBooks.com

فُتِحَت الإشارة، وبـدأنا في التحـرُّك مـن جديـد. انظـروا للــ"شـاهين" البيضاء، بجانبنا. مَن حاول تجديدها، فعـل ذلـك بـشكل سـيئ للغايـة. الشُبَّان الأربعة بداخلها ليسو من حيِّنا، لكنهم ينتمـون - بكـل تأكيـد - لجانبنا من الحياة. يبدو أنهم في طريقهم للعمل. إنهم من ذلـك النـوع الذي يطوف الشوارع بسيارته في إجازة نهاية الأسـبوع، لمجـرد التبـاهي والاستعراض. ألمح في الجانب الآخـر مـن الطريـق، سـيارة "بي إم دبليـو 740" بلون أحمر نبيذي. هذه سيارة رائعة، حقًّـا. النـاس الـذين أعمـل لديهم يمتلكون سيارة تُماثلها.. بل إن لوحة الأرقام هـي ذاتهـا. انتظـروا لحظة!.. إنه "مراد بيه" لا غير! لكن المرأة التـي تجلـس بجانبـه لـيست "سيفجي هانم"! لعلها زميلته في العمل، أو شيء مثـل ذلـك. يـا اللــه! لقد قبَّلها على شفتيها! فُتِحَت الإشارة.

لا أصـدِّق. لا بـد أننـي تخيَّلـتُ مـا رأيتـه للتَّـوِّ. كـلَّا.. لم أرَ شـيئًا من الأساس. "سـيفجي هـانم" طبيبـة، وتعمـل في المسـتشفى. في قِـسم الطوارئ. "مراد بيـه" يملـك شركـة إنـشاءات هندسـية. إنهـما متزوجـان

www.JudBooks.com

منذ أربع سنوات، وليس لديهما أطفال. لكنهما يُحبَّان بعضهما بشدَّة، أو كانا كذلك سابقًا على الأقل. ميدان "كيزيلاي" مغلق أمام السيارات. أنزل من الباص. ليس أمامي سوى السير على قدميَّ. سوف أركب "باص" آخر من الجهة الثانية للميدان. تعيش "سيفجي هانم" وزوجها في الطابق 13 من بناية فخمة في "تشوكورامبار". أنظف بيتهما مرَّتين في الأسبوع. يدفعان لي مبلغًا جيِّدًا. أدعو الله أن يُكرمهما.

لا بد أن هناك مظاهرة ما في "كيزيلاي". هناك قنابل مسيلة للدموع. أشمُّ رائحتها من هنا. عيناي تحرقانني. أشعر بصعوبة مُتزايدة في التَّنفُّس. كل من حولي يسعلون ويبصقون، وهم يركضون في كل اتجاه. هل أركض بعيدًا مثلهم؟ من الأفضل أن أعبر الطريق، وأسير في الشوارع الخلفية. لقد ضربني شيء على رأسي، فجأة. يبدو أن الضربة قد شجَّت رأسي. أقع على الأرض وأنا أشعر بالاختناق. يبدو أنها نهايتي. حسنًا، لا بأس.. ولكن لماذا أموت؟ ولماذا الآن؟ ومَن

الذي قتلني؟ عليَّ أن أدع مهمة البحث عن إجابات، للأحياء! أسقط على وجهي. أظن أنني كُسِرَ أنفي. أجلس في منتصف الطريق، أتابع ما حولي. الأمر أكثر واقعية من أن يكون حقيقيًّا! أنفي ينزف. أشعر بطعم الدم في فمي. هناك مَن يجرُّ النساء مِن شعورهن، وهناك مُعارضون في سن الشباب يحاولون مواصلة الهتاف بشعاراتهم، بينما تنهال عليهم عِصِيِّ رجال الشُرطة. أرى أشخاصًا يقذفون حجارة، وآخرين يحتمون منها باللافتات. أشاهدُ دبَّابات، ومدافع ماء. يتناهى إلى سَمعي صوت سرينة.. سرينة..

أنا داخل سيارة إسعاف الآن، يغطي وجهي قناع أكسجين. هناك جرحى آخرون، لكنهم واقفون. لا أحد غيري يستلقي على نقَّالة. هناك ثلاثة مُسعِفين، رجل وامرأتان. أعتقد أن إحداهما طبيبة. للشاب شعرٌ ناعمٌ مصفَفٌ للوراء بعناية. ليس من النوع الذي أعتبره وسيمًا. أراهن أنه يصرف كل ماله على مظهره وهيئته. لا يملك سيارة على الأغلب، لكنه يملك كثيرًا من "جِل" الشَّعر! هيئة المُسعِفة

www.JudBooks.com

وهندامها أكثر هدوءًا من زميلها. بينما تهتم بإسعافنا وتضميد جروحنا، تتذمَّر من أولاد الحرام الذين فعلوا بنا هذا. يبدو أنها عضو اتحاد. وجهها غاضب، لكن عينيها ودودتان ودافئتان. تلتفتُ نحوي، كل فترة، لتسألني إن كنتُ بخير. أجيبها كل مرَّة بإيماءةٍ من رأسي. ليس لديها سيارة، لكنها متزوجة. ربما يمتلك زوجها سيارة. الطبيبةُ أصغر منهما عُمرًا، يحاولان لَفت انتباهها: "دكتورة!.. دكتورة!".. لكنها مذعورة لدرجة جعلتها تنسى أنها طبيبة أصلًا. حسنًا، أكاد أجزم بأنها غير متزوجة، بل ومُهمِلة أيضًا. المُسعِفة، عضو الاتحاد، أكثر ثباتًا منها. هي التي تدير الوضع بأكمله، بمهارة.

أظن أننا وصلنا. يُفتَح باب سيارة الإسعاف. يخرجونني ويضعونني في قِسم الطوارئ. الشابَّان اللذان يدفعان النقَّالة التي أستلقي عليها، هادئان ومتماسكان، حتى يُخَيَّل إليك أنهما يدفعان أسِرَّة المرضى والجرحى منذ مولدهما! ليسا من حَيِّنا، لكنهما مثلنا تمامًا. إنهما عازبان. يمتلك أحدهما "موتوسيكل" مُستَعمَلًا. لو

www.JudBooks.com

سمعتَ الطريقة التي يلقيان بها الأوامر، ويطلبان بها من الناس إفساح الطريق، لظننتَ أنهما من أعظم وأهمّ الجرّاحين مثلًا! لكن يبدو أنهما يمتلكان نفوذًا وسيطرةً، على كل حال. قسم الطوارئ ممتلئٌ للغاية بأناسٍ يصرخون ويتأوّهون. يرفعني الـ"جَرّاحان"- بمنتهى السهولة - ويضعانني فوق أحد الأسِرَّة. يحملان النقّالة الخاوية، ويغادران بسرعة.

أستلقي فوق السرير لبعض الوقت. أتحسَّس مؤخرة رأسي، بحذر. أعتقدُ أن مخي قد سقط من مكانه، لكنني حين أنظر إلى أصابعي أجدها نظيفة. لا أثر لدماء أو نتف من المخ عليها. أحاول التأكد ثانيةً. أتحسَّس جيِّدًا هذه المرَّة. تبيَّن لي أن رأسي لم يُكسَر، أساسًا، لكنَّ هناك نتوءًا كبيرًا. في حجم قبضة يدي تقريبًا.

www.JudBooks.com

يتجمَّع حولي عددٌ من الأطبَّاء، بمعـاطف بيـضاء. يلفُّـون بـسرعة، حتـى إنني لا أميزهم جيِّدًا. جميعهم صغار السِّن بشكلٍ غير معقـول. وجمـيعهم غير متزوجين. يبدون كطلبة لا مُبالين، في كلية الطب. يقول أحدهم:

- سيدتي، تعرَّضت هذه الحالة لضربةٍ على الـرأس. وربمـا تعـاني مـن كسرٍ في الأنف.

الدكتورة التي ينادونها بـ"سيدتي"، تقترب منِّـي وتميـل عـليَّ. تلتقـي أعيننا. أصيح:

- "سيفجي هانم"!..

تنظر إليَّ بعينين باردتين، وتقول معتذرة:

- عفوًا، ولكن مَن أنتِ؟

لا بدَّ أن ملامح وجهي قد تـداخلت، ولم تعـد واضـحة، وإلا لكانـت عرفتني فورًا. أقول لها:

www.JudBooks.com

- إنها أنا!.. "نازان".

تصيح بدهشة:

- يا إلهي!.. "نازان"! ما الذي حدث لكِ؟

أهزُّ كتفيَّ وكأنني أخبرها بأنني لا أدري. تقول:

- حسنًا.. فهمت.

تضيف:

- خذوها للأشعَّة.



يعيدونني إليها من جديد، عقب أن أنتهي. تقف "سيفجي هانم" بجواري، بينما تتفحَّص صور الأشعَّة. تقول أخيرًا:

- حسنًا، ليس هناك ما يستدعي القلق.. لا كسور من أي نوع، ولا نزيف داخلي. سوف تمضين الليلة هنا، وسنأخذ لك أشعَّة أخرى في

www.JudBooks.com

الغد. أما الآن، فسوف يضعون ضـمادات عـلى جراحـك، ويعلقـون لـكِ بعض المحاليل. سوف تُخفِّف قليلًا من إحساسكِ بالألم.

- ولكن.. أمي. عليَّ أن أتَّصل بأمي.

- لا تقلقي. سوف أبلغها.

في تلك اللحظة، يظهر عدد من رجال الـشُرطة، يحملـون في أيـديهم أجهزة لا سلكية. يسأل أحدهم:

- مَن أتى من المظاهرة مِن هؤلاء؟

لا أحد يجيب. يغضب الضَّابط الكبير، ويصيح بغيظ:

- مَن المسؤول هنا؟

تتقدَّم "سيفجي هانم"، وتعلن:

- أنا.

يُكرِّر الضَّابط سؤاله حول القادمين من المظاهرة. تُجيبه:

www.JudBooks.com

- ليس لدينا القُدرة على تحديد ذلك.

تردف قائلة:

- مهمتنا هي علاج المرضى. لا تشكِّل معرفة مَن يكونون فارقًا لدينا.

يسدِّد إليها الضَّابط نظرات نارية، ثم يلتفت نحو الضباط الآخـرين، مُلقيًا أوامره:

- اجمعوا هويَّاتهم وبطاقاتهم الشخصية.

تحاولُ "سيفجي هانم" منعهم:

- هلَّا غادرتم من فـضلكم؟ علينـا اسـتكمال رعايـة هـذه الحـالات. دعونا نُتمم واجبنا أوَّلًا، ثم تعالوا ثانيةً لإتمام مهمتكم.

يُطلق الضَّابط الكبير أمرًا جديدًا، بلهجة تهديد:

- دوِّنوا اسمها هي أيضًا.

www.JudBooks.com

تقترب "سيفجي هانم" من سريري، وتقف بجانبي. يطلب منِّي أحد الضباط تسليمه بطاقتي الشخصية. تتدخل بسرعة، وتقول:

- إنها خادمتي. لقد سقطت من أعلى السُلَّم وهي تُنظِّف.

يبدو الضَّابط الشابُّ مُقتنعًا. تعكس عيناه نظرة الفقر التي أعرفها جيِّدًا. أنا شِبه مُتأكِّدة من أنه لا يملك سيارة. يصيح الضَّابط الكبير مُجدَّدًا:

- خذ بطاقتها هي كذلك.

هو أيضًا قادم من قلب الفقر، لكنه بفضل سيارته ("فورد مونديو" ربما، ومستعملة أيضًا) استطاع أن يتخطى حاجز الفقر بالكاد. أبدت "سيفجي هانم" اعتراضها، لكن الضَّابط الكبير يقاطعها:

- لا شيء يستدعي القلق يا سيدتي. إن كان ما تقولينه صحيحًا، فلن تكون هناك مشكلة، أليس كذلك؟

www.JudBooks.com

لكن نبرات صوته كانت تشي بالعكس تمامًا. تلتفت "سيفجي هانم" نحوي، وتقول مُطَمئِنة:

- سيكون كل شيء على ما يُرام. ناوليه بطاقتكِ. سوف أتَّصل بـ"مراد"، لديه عدد من الأصدقاء من المُحامين. سوف يهتمُّون بكِ.

بينما كانت تتكلَّم، أتذكَّر ما كان "مراد" يفعله داخل سيارته الـ"بي إم دبليو"، مع تلك المرأة. أشعر بالأسى حيال "سيفجي هانم". يجمعون بطاقاتنا، ويغادرون، تاركين شُرطيين اثنين لمُراقبة المدخل. الألم أقلُّ حدَّةً الآن، بفضل المحاليل والأدوية المُسَكِّنة. الضمادات تغطي أنفي. أشعر بتورُّمٍ أسفل عينيَّ. جُرحت ركبتاي حين سقطتُ على الأرض. تحرقانني كالنار.

بعد بضع ساعات، يعود الضَّابط الكبير مع رجاله، ويأخذون تسعة مرضى للحجز في قسم الشرطة. أنا واحدة منهم. تحاول "سيفجي هانم" منعهم، دون فائدة. أجلس بجوار النافذة في سيارة

www.JudBooks.com

الشُّرطة الـ"ميكروباص"، وتنطلق بنا. الشاب الذي يركب "أودي كيو 7" بجوارنا، يعتمد في حياته على بابا، وفلوس بابا! تنطلق الموسيقى من سيارته بصوتٍ مرتفعٍ جدًّا، ويضرب بأصابعه على المقود، وفقًا لإيقاعها. إنه يدرس في جامعة خاصَّة، على الأغلب. سيشعر بالملل من هذه السيارة، بحلول العام المقبل، وعندها سيطالب بـ"مرسيدس سي إل إكس"، وسوف يسارع بابا بشرائها طبعًا! على كل حال، إنه يستحق هذه المعاملة الخاصة، بطبيعة الحال. لمَ لا وهو لا ينتمي لجانبنا نحن من المدينة؟

يتحول ضوء إشارة المرور إلى اللون الأخضر.

أمضي الليلة داخل زنزانة في القسم، بمفردي. إنها ليلة كالجحيم، أنا متعبة للغاية، ومع ذلك يُجافيني النوم تمامًا. صباحًا، يبلغونني بوصول مُحامٍ أرسله "مراد بيه". المحامي متزوج. لم يطأ بقدمه

www.JudBooks.com

جانبنا من المدينة. إنه يركب "فولفو إس 70". أنا متيقنة من ذلك. أقـصُّ عليه كل شيء. يقول لي:

- لا تقلقي. سنفعل كل ما بوسعنا. سأحاول إبقاءكِ خـارج الـسِّجن، حتى موعد المُحاكمة.

أصيح:

- أيُّ مُحاكمة؟ ماذا تعني؟ أنا لم أفعل شيئًا!

يُجيبني:

- أُصدِّقكِ، لكـن المـشكلة هـي أن صـورتكِ تحتـلُّ الـصفحات الأولى لجميع جرائد اليوم!

يمـدُّ يـده إلى حقيبتـه الجلديـة، ويـسحب منهـا صـحيفة. العنـوان الرئيسي هو "المُخرِّبون!" وتحته صورتي وأنا أجلس في منتصف الطريـق، والدماء تُغطِّي وجهي.

www.JudBooks.com

أكرِّر ثانيةً:

- ولكني لم أفعل شيئًا!

يتسلَّل الخوف إلى نفسي. يذكِّرني المحامي بحقِّي في التـزام الـصمت، ويُوجِّهني بعدم التصريح بأي شيء داخل قسم الشرطة، وبقول كـل مـا لديَّ أمام وكيل النيابة. يخبرني بأننا سنتحدَّث مُطوَّلًا، بشكلٍ مفصَّل، إذا ما استمرَّ احتجازي، ثم يُصافحني ويستدير ليغادر. أصيح وراءه:

- من فضلك.. أخبر أمي بأني بخير.

يرفع يده ليطمئنني بأنه سيفعل. تأتي شُرطية وتمـسك بـذراعي، ثـم تعيدني إلى زنزانتي. إنها من جانبنا. ربما عملت أمها كخادمة في البيوت، كي تعلِّمها. إنها غير متزوجة، وفي الوقت الحالي تكتفي بـالحلم بـامتلاك سيارة.

بعد يومين، يخرجوننا من الزنازين، ويخبروننا:

www.JudBooks.com

- ستذهبون للمحكمة.

هنـاك أربـع نـساء غـيري. أجلـس بجـوار النافـذة، في "ميكروبـاص" الشرطة. تنطلق بنا السيارة، بعد امتلائهـا بـالمحتجزين. في طريقنـا مـن "أولوس" إلى "صِحْيَه"، أتأمَّل المـرأة في الــ"فـورد فـوكَس" البيـضاء. إنهـا مندوبة لإحدى شركات الأدويـة، بـلا شـك. أنيقـة، بتنُّـورة قـصيرة جـدًّا، ونظارة شمسية. كل ما فيها يكاد يصرخ: "أنا من جانـب مختلـف تمـام الاختلاف، من المدينة". السيارة ليست ملكها، بل من سـيارات الـشركة. المرأة عزباء. تبدو سعيدة، لكننـي أشـعر بأنهـا تُخبِّـئ حزنًـا وحكايـات تحت هذا القناع السعيد. إنها تدرك أن هذه السعادة ليست مِلكًا لهـا، تمامًا كالـسيارة التـي تقودهـا. لقـد اسـتعارت الاثنتـين لـبعض الوقـت. تحوَّلت إشارة المرور إلى اللون الأخضر.

يُوجِّه وكيل النيابة أسئلة قصيرة، فأردُّ بإجابات قصيرة. إنه في مُقتبل العُمـر. شيءٌ مـا في هــذا الـشاب، يحمـل بقايـا رائحـة الفقـر. أخمِّـن

www.JudBooks.com

بأنه متزوج، وأنه يمتلك "نيسان آلميرا" مستعملة، على الأغلب. كان يكـره فقره، ويرغب حقًّا في الابتعاد عن تلك الذكريات بأقصى ما يستطيع من سُرعة. لا ينظر إليَّ إلا مرَّة واحدة فقط. يقول محاميَّ:

- لا سبب يستدعي احتجازها.

أو شيء نحو ذلك. يطلب منَّا وكيل النيابة الانتظار في الخارج. نقـف في القاعـة الخارجيـة لأربـع أو خمـس سـاعات كاملـة. بعـد أن ينتهـي التحقيق مع الجميع، يفصلونني أنا وخمسة عـشر، أو عـشرين شخـصًا آخرين، عن الباقين، ويخبروننا بـأن وكيـل النيابـة قـد طلـب إبقاءنـا في الحجز حتى موعد المُحاكمة. أبكي وأتساءل:

- حجز؟ ما معنى ذلك؟

يحاول المحامي مُواساتي وتهدئتي. بعد قليل، أقف معـه أمـام أحـد القُضاة. يُكرِّر القاضي عليَّ الأسئلة ذاتها التـي وجَّهها لي وكيـل النيابـة.

www.JudBooks.com

أردُّ بالإجابات ذاتها. القاضي متزوج، وقد نسي تمامًا كل ما يتعلَّق بالفقر، إنه يقود "سكودا سوبيرب" جديدة. سوداء، بمقاعد جلدية.

تنطلق بنا السيارة في الظلام، باتِّجاه مبنى سجن "سنجان". يرفضون السماح لي بالجلوس بجوار النافذة. أشعر بالضيق طوال الرِّحلة. لا يقطع الصمت إلا الأصوات التي تنبعث كل قليل من أجهزة اللاسلكي. الحارسة في مدخل السِّجن تطلب منَّا خلع جميع ملابسنا، ثم يقُمن بتفتيشنا. جميع السجَّانات ينتمين لجانبنا من المدينة، ويُدركن جيِّدًا أنهن سيبقين فقيرات للأبد، ولذلك فإن أيًّا منهن لا تجرؤ حتى على مجرد الحلم بامتلاك سيارة. لسنا السبب في فقرهن، لكنهن يُعاملننا كما لو كُنَّا كذلك.

لقد مَرَّ على وجودي في السِّجن ستة أشهر. أتشارك الزنزانة مع سبع نساء أخريات. جميعهن من جانبنا في المدينة. إنهن مهرجات ومرحات، ويعرفن شيئًا أو اثنين من تلك الأمور.. تفهمون ما أعني!

www.JudBooks.com

هناك إعادة لمُحاكمتي بعد شهرين من الآن. تأتي أمي لزيارتي أسبوعيًّا. عادت للخدمة في البيوت، مرَّةً أخرى. تبلغني دومًا سلام "سيفجي هانم". في المرَّات الأولى للزيارة، كانت أمي تبكي، لكنها أفضل حالًا الآن. كان عيد ميلادي في الأسبوع الماضي. أعدَّت لي صديقاتي كعكة على هيئة سيارة، من حبَّات البسكوت. ضحكنا طويلًا على تلك الكعكة.

أنا ابنةُ أبي حقًّا. ابنة الرجل الذي تهشَّمت أحلامه بـ"موستانج" جميلة، تحت باص قديم وصدئ. لم أشترك في حياتي في أي مظاهرة أبدًا. أنا امرأة عاملة، يتراكم الغضب بداخلي في هذا السِّجن. هنا، حيث أتعرَّف إلى ملامح جديدة لحيِّنا. قد لا أمكث في السِّجن مدةً أطول، ولكن الأشهر الستَّة الماضية جعلتني أتعرَّف على نفسي. تعلَّمتُ درسًا آخرَ هنا: في بعض الأحيان، إن مشيتَ بشجاعةٍ وتصميمٍ، فسوف تكون أسرع من أي سيارة. أنا "نازان" الخادمة.. انتظريني يا "أنقرة"، فسوف أخرج لمواجهتكِ قريبًا.

www.JudBooks.com

www.JudBooks.com

4

ليس الأمر كما تظنُّون



www.JudBooks.com

www.JudBooks.com

أضع الحَبل حول رقبتي، ثم أركل المقعد بسُرعة. يتدحرج المقعد على الأرض. أُحدِّق في السَّقف، مُستغرقًا في التَّفكير. انتظرتُ أن تتوالى مشاهد حياتي أمام عينيَّ، كشريطٍ سينمائي. مرَّت عشر دقائق كاملة، لكنَّ شيئًا لم يحدث. عوضًا عن ذلك، تُومض في ذهني صُوَر مُتتابعة لوجهها الباسم. حياتي، التي تنحصر في وجودها، وابتسامتها، على وشك الانتهاء، لولا أنني أستلقي على الأرض. حسنًا.. تبيَّن لي أنه كي تنجح في شنق نفسك، عليك أن تفعل ذلك وأنت غير مُستلقٍ بجسدك على الأرض. بعد أن أكتشف ذلك، تعصف بي رغبة جامحة في الحياة. ينتابني أيضًا شعورٌ بالارتياح، لانتهائي من أداء مهمة محاولة الانتحار اليومية. أقف وأزيل الحبل من حول رقبتي، ثم أذهب إلى المطبخ، وأقلي لنفسي ثلاث بيضات للإفطار. بعدها، أحلق ذقني، وأرتدي ملابسي وأغادر المنزل.

داخل المصعد، ألتقي العَمَّ "قادر". إنه زعيم عصابة مافيا، مُتقاعد. أبادره بالتَّحيَّة:

www.JudBooks.com

- صباح الخير يا عمِّي.

- صباح الخير يا "موستي". كيف أحوالك؟

- جيِّدة يا عمِّي، كما أظنُّ. أعتقد..

كنت أودُّ أن أقول له: "في الحقيقة يا عمِّي، لقد حاولتُ الانتحار منذ قليل".

كنتُ أرغب في أن يضمَّني ويربت على رأسي، وأن يُشعِرني بالتعاطف، وبشيءٍ من المودَّة؛ لكنني بدلًا من أن أخبره بأي شيء، اكتفيتُ بالنظر إليه نظرةَ مَن حاول الانتحار للتَّوِّ. أردته أن يشعر بالمسألة من تلقاء نفسه، لكنه فشل في ذلك. أحسستُ بالأسى. بعد خروجنا من المصعد، التفت نحوي متسائلًا:

- هل تُعاني من مشكلةٍ ما في عينيك يا بُنيَّ؟

حاولتُ التَّماسُك ومنع دموعي، وأجبته:

www.JudBooks.com

- كلَّا يا عمِّي. ليس بالضبط.. أعني..

- إذن، ما الـذي يجعلـك تلـبس هـذه النظـارة الشمـسية العجيبـة، داخل المصعد، يا غبي؟

ذكَّرتني عبارته بالمَثَل الذي يدور حول البطيخـة التـي سـقطت مـن على ظهر الحمار، وتكسَّرت، كذلك كمَن يحاول يثير انتباه الغبـي. ولـذا شعرتُ بأنّني الحمار الملعون، وليس البطيخة.



سرتُ في الشوارع لبعض الوقت، دون هدف، مذكِّرًا نفسي بأن لـديَّ سببًا وجيهًا لعدم الذهاب إلى وظيفتي اليوم، فأنـا عاطـل عـن العمـل، أساسًا. أنا عاطل منذ شـهرين كـاملين. وحـين أقـول "الوظيفـة"، فـإنني أعني توصيل الطلبـات للمنـازل في مطعـم بيتـزا. كنـتُ أقـوم بتوصـيل البيتزا. للدقَّة، فعلتُ ذلك ليومٍ واحدٍ فقط. في يـومي الأوَّل، سُرِق منِّـي موتوسيكل المطعم. طلبوا منِّي عدم العودة ثانيـةً. لم يـسبق لي العمـل

www.JudBooks.com

قبلها. كان أبي، حفظه اللـه، يرسل لي شـهريًّا مبلغًـا مـن المـال، لكننـي حين بدأتُ العمل، طلبتُ منه التَّوقُّف عن إرساله، وأخبرته بأنني لم أعد بحاجةٍ إليه. شعرتُ بحَرَجٍ بالغ من الاتِّـصال بـه في اليـوم التـالي لأخـبره بأنني قد فُصِلتُ من وظيفتي. يعتقـد والـدي أننـي مـا زلـتُ أعمـل في توصيل البيتزا. الحقيقة، إنه يظنُّ أنني صرتُ أمتلكُ محلًّا لبيـع البيتـزا. عندما اتَّصل بي الأسبوع الماضي، قال:

- كنتُ أودُّ أن أسألك يا بُنيَّ منذ فترة.. ما هي البيتزا أصلًا؟



يعـيش أهـلي في جبـال "كارليوفـا"، واسـتقبال المُكالمـات التليفونيـة هناك بشعٌ للغاية. وسط التَّشوُّش المُتبادل بين تليفونينا، أقول له:

- إنها.. من موادِّ البناء.

يُجيبني:

- جميل..

www.JudBooks.com

ينقطع الخطُّ فجأةً، ويتَّصل بي مرَّةً أخرى بعد قليل، ليسألني:

- أيُّ نوعٍ من موادِّ البناء؟

لم أجبه. تنقطع المُكالمة للمرَّة الثانية.

أسيرُ مُتمهِّلًا أمام بيت "بيرنا". هي لا تكون في المنزل في هذا الوقت من اليوم. إنها تعمل في بنك، أو لصالح بنك، شيء من ذلك القبيل. ما أعنيه هو أنني قابلتها للمرَّة الأولى داخل سوبرماركت. ما إن رأتني حتى سألتني:

- هل يمكنني التَّحدُّث إليك بخصوص بطاقات الائتمان يا سيدي؟

أجبتُها بالنفي، لكنها ألحَّت في طلبها، وكرَّرتُ أنا رفضي. قالت:

- كل ما عليك فعله هو السماح لي بتصوير بطاقتك الشخصية، وسوف أتولَّى أنا القيام ببقية الإجراءات.

لم أستطع إحباطها للمرَّة الثالثة، ولذلك أعلنتُ موافقتي. قالت:

www.JudBooks.com

- عظيم!

جعلتني أوقِّع بعض الأوراق، بسُرعةٍ هائلة. قرأتُ الاسم المُعلَّق على صدرها: "بيرنا"، وهكذا عرفتُ اسمها. هي أيضًا تعرف اسمي، فقد قرأته وهي تصوِّر بطاقتي. لقد مرَّت سبعة أشهر، منذ ذلك اليوم، ولكنني متيقن من أنها لم تنسني، فقد منحتني حينها ابتسامة رائعة حقًّا. ذهبتُ لرؤيتها في اليوم التالي، مباشرةً، وتبعتها حتى بيتها، لكنها لم تلحظ وجودي. حين لم تظهر في السوبرماركت في الأيام التَّالية، توجَّهتُ إلى البنك لأسأل عن مكانها. طلبوا مني أخذ رقم، وانتظار دوري. عندما حان دوري، أعدتُ سؤالي عليهم. أمروني بعدم العودة ثانيةً. لم أرَ "بيرنا" مرَّةً أخرى، أبدًا. أنتظرها أمام بيتها، ليل نهار، لكنني لا ألمحها مُطلقًا. ما زالت ابتسامتها معي.



www.JudBooks.com

يعتقد والدي أنني أدرس الهندسة المدنية، هنا في "إسطنبول". لقد مرَّت أربع سنوات، ويُفترَض بي أن أتخرَّج قريبًا، ولكن لأنني لم أُنهِ دراستي الثانوية أصلًا، فإن إدارة الجامعة رفضت السماح لي بأداء امتحانات القبول.

في العام الماضي، حين كان يقوم باستبدال السطح الطيني لبيتنا، اتَّصل بي أبي طلبًا للمشورة، قُلتُ له:

- لم نصل لهذا الجزء في دراستنا، بعد.

عندما سألتني "بيرنا" عن وظيفتي، أخبرتها بأنني مهندس مدني. ما زلتُ أحمل بطاقة الائتمان معي. تمَّ إلغاؤها حين فشلتُ في سداد فاتورتي الأولى، لكنني لا أتحمَّل فكرة التَّخلُّص منها. في الشهر الماضي، جاءني عددٌ من المُحضرين للحجز على مُمتلكاتي. سألوني:

- هل أنتَ "مصطفى بيه"؟

- نعم. أيُّ خدمة؟

www.JudBooks.com

أخـذوا كـل مـا لـديَّ، ورحلـوا. ليتنــي أسـتطيع العثـور عـلى "بيرنـا". أودُّ أن أشرح لهـا سـبب فـشلي في دفـع فـاتورتي. أشـعر بـالحَرَج لأننــي خذلتها.

الحقيقة أننــي لـستُ الـشخص الـذي تظنـون أنكـم تعرفونـه. قبـل "بيرنا"، كان هناك "نرجس". إنها الفتاة التي أحببتُها، أو وددتُ أن أحبَّها على الأقل. إنها ابنة "غيَّاث الدين بيـه". يـسكنون في العـمارة المواجهـة لمسكني. مرَّت بجواري في الشارع، في إحدى المرَّات، ومنحتنـي ابتـسامة رائعة الجمال. تـدرس "نـرجس" في الجامعـة. ذهبـتُ هنـاك، مـرَّةً مـن المرَّات، لرؤيتها. جلستُ أمام المدخل، منتظـرًا انتهـاء مُحاضراتهـا، أفكِّـر في العبارة التي سأقولها لها:

- أخبريني يا "نرجس".. بأي طريقة أحبُّك؟

بطريقة المرضى النفـسيين والمهووسـين؟ أحفـر اسـمك عـلى صـدري بموسي حلاقـة؟ سـوف أكـسر يـد أي رجـل تـصافحينه، لأنـك لم تتنـازلي

www.JudBooks.com

ولو مرَّة وتوافقين حتى على لمس يدي. سـوف آتي هنـا يوميًّـا، وأنتظـرك أمام هذه البوَّابة. سوف أمسك ذراعكِ بقوة، وأقول لكِ:

- هيَّا بنا. لنذهب إلى أيِّ مكان، أنا وأنتِ فقط.

سوف أحطِّم رأس أي شخص يُحاول اعـتراض طريقنـا. كلـما طلبـتِ منِّي تركَكِ وشأنك، بالغتُ في تحويل حياتكِ لجحيم. سوف أعسكر أمام بيتكِ في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل. سـتطلين عـليَّ مـن نافـذتك، تـرتجفين خوفًا، وفي الوقت ذاته يملؤكِ إحساسٌ بالزَّهو. سـتبلغين الـشُّرطة عنِّـي، وسيأخذونني إلى القسم. مع كل ركلةٍ أتلقَّاها، ومع كل لكمـة، سأصـيحُ مُناديًا اسمك. كل ضربـةٍ سـتُقرِّبني منـكِ أكـثر. إذا لم أحـصل عليـكِ يـا "نرجس"، فلن تكوني من نصيب غيري. مصيركِ إمَّا معـي وحـدي، وإمَّـا تحـت الـتراب. سـأحيلُ حياتـكِ سـجنًا. سـتفقدين أيَّ رغبـة في الحيـاة. ستأتينني بعدها، ودموعكِ تسبقكِ، وتقولين لي:

www.JudBooks.com

- أتوسَّل إليك.. دعني وشأني. لا أستطيع أن أحبَّك. أنا أخافك. أنتَ تُدمِّر حياتي. ألا تُدرك ذلك؟

عندها فقط، سأدرك الحقيقة المُرَّة. سأستخدم موسي حلاقة لتخليد حبِّي لكِ في شرايين يديَّ. سأترك لكِ خطابًا، وستغرقين في دموعك الغزيرة وأنتِ تقرئينه، وحينها فقط ستفهمين كم أحببتكِ. ستأتين إلى قبري، حاملةً أزهارًا بريّة، وستقرئين على الشاهد الحجري العبارة التَّالية: "هل جئتِ لرؤيتي يا نرجس؟".

أخبريني يا "نرجس".. بأيِّ طريقة؟

يُمكننا، إن أحببتِ، أن نُغادر الجامعة يوميًّا معًا، وأنا أحتضن يدكِ في كفي. لا شيء يُفرِّق بيننا. سنكون زوجًا من اليمام. سيحسدنا الجميع. سيحاولون تقليدنا، ويفشلون، وسوف يتسبَّب ذلك في تفاقُم المشكلات بين العُشَّاق. لن أناديكِ إلا "حبيبة قلبي"، ولن تخاطبيني إلا بـ"حبيبي". سنكون روحًا واحدة داخل جسدين. في نهاية الأمر،

www.JudBooks.com

سننتقل للعَيش معًا، مُنهيَين عذاب الافتراق عـن بعـضنا ولـو لـساعات. سنُزيِّن جدران بيتنا بالقصائد التي كتبتها لكِ. كل لحظة لنا معًا ستكون كمشهد من حكايـة أسـطورية رقيقـة. لـن نـسأم مـن تبـادل النظـرات المُحِبَّة، وسوف تُسكرني عـلى الـدَّوام رائحـة جـسدكِ الخلَّابـة. سـنعيش وكأن الدنيا تخلو إلا منَّا نحـن الاثنـين، وفي يـومٍ مـن الأيـام ستكتـشفين أن هنـاك شخـصًا ثالثًـا يـشاركنا الحيـاة. سـتعرفين أن في حيـاتي امـرأة أخرى اسمها "جيدا"، وأنني أرسـل لهـا كثـيرًا مـن الهـدايا. لـن تـصدقي ذلك، في بـادئ الأمـر، وسـتقولين إن ذلـك مـستحيل، وإننـي لـن أفعـل شـيئًا مُماثـلًا أبـدًا. بعـدها، لـسببٍ أو لآخـر، ستُـصدِّقين المـسألة، وستـشعرين بالانهيـار، ولـن تُغـادري البيـت لأسـابيع. سـتفقدين إيمانكِ بالجميع، بل بالإنسانية ذاتهـا. ستـشمئزِّين حـين أمُـرُّ بخـاطرك. وبينما تجذبني المياه الباردة للـ"بوسفور" نحو الأسـفل، بـسرعةٍ هائلـةٍ، تقرئين الخطاب الذي تركتـه لـكِ. سـتنهمر دموعـكِ دون توقُّـف، حـين تفهمـين أخـيرًا أن "جيـدا" ليـست سـوى أختـي، وأننـي لم أحـبَّ امـرأة

www.JudBooks.com

عداكِ. ستأتين إلى قبري، حاملةً باقة من الأزهار البرِّية. ستقرئين على الشاهد الحجري لقبري: "هل هذا أنتِ يا نرجس؟".

والآن، أخبريني يا "نرجس": بأي طريقةٍ أحبُّكِ؟



يُمكن لحبِّنا أن يُولد من رحم العَمَل، وأن ينضج بعَرَق العُمَّال المُكافحين. سنُسرع الخُطى للحاق بمظاهرةٍ تلو الأخرى. سيمتزج عَرَق جسدينا معًا. سنُخلِصُ لقضايانا المشتركة، ولأحدنا الآخر. سنسير يدًا بيد في درب الثورة المُضيء، ونواصل اكتشاف أحدنا الآخر خلال ذلك. سنتعرَّض لتحقيقاتٍ قاسية، تزيد من متانة حبِّنا. سنُساهم في تشكيل مستقبل باهر للمطحونين. سيكون العمل هو سبيلنا للحب، والمقاومة نهجنا للحرية. ستكون الشجاعة والتضحية هي القوانين التي تحكم حياتنا المهددة بالمخاطر. في أحد الأيام، ستنهارين تحت ضغط التعذيب الرهيب، وستخبرينهم عن المكان الذي أختبئ فيه.

www.JudBooks.com

فَجرًا، وقبل حتى بزوغ أوَّل أشـعَّة الـشمس ومُعانقتهـا للنجمـة الحمـراء فوق جبيني، يهاجمون البيت، ويطلقون رصاصة على رأسي. ثم سـيعثرون على الخطاب الذي كتبته لكِ. ستغرقكِ الـدموع الغزيـرة وأنـتِ تقرئينـه، لأنكِ عندها فقط ستفهمين كم أحببتك. ستأتين إلى قـبري، ومعـكِ أزهـار برَّية. ستجدين على الشاهد الحجري لقبري عبارة: "هل هـذه أنـتِ مـرَّة أخرى يا نرجس؟".

يُمكنني أن أحبَّكِ يا "نرجس"، ولكن أخبريني فقط بأي طريقة؟



على سبيل المثال: يُمكن لعلاقتنا البسيطة هـذه أن تنتهـي بـسيجارة حشيش، ملفوفة جيِّدًا، إذ سـنُدرك بعـدها بـأن بإمكاننـا التغلـب عـلى إحباطات الحيـاة بإشـعال واحـدة جديـدة. سـنتخذ البوهيميـة أسـلوبًا لحياتنا، وسنحبُّ ذلك؛ لكن هذا سيكون بداية انهيـار علاقتنـا. سـنعمل في الـ"بارات"، أنـا وأنـتِ، لنـتمكن فقـط مـن شراء الحـشيش. سـنتذمر

www.JudBooks.com

وننتقد الظلم وعـدم المـساواة، وسـيكون غـضبنا المزعـوم مُجـرَّد حجَّـة لإشعال سيجارة أخرى. في كل يـوم، سـنحطم "تـابو" جديـدًا، وسـنعتنق فكرة الحرِّية الجنسية. لـن نفكـر بالمـاضي عـلى الإطـلاق، ولـن يـشغلنا التخطيط للمستقبل. سنعيش اللحظة، بلا مُبالاة. سيتعكَّر مزاجنا، ليس بسبب أن فطيرة "اللحم بعجين" يبلغ سعرها 50 لـيرة، وإنمـا لأن هنـاك مَن يـشتريها بهـذا الـثمن أساسًـا. سـنختار العَـيش في "أوليمبـوس"، يـا "نرجس". في أحد الأيام، وبينما أكـون في المنـزل بمفـردي، أفقـد أعـصابي تمامًا. أسائل نفسي عن معنى حياتي القـذرة، الحقـيرة. أسـارع بـالخروج لأشرب. بعد البيرة الرابعة عشرة، أبدأ شجارًا ينتهي بطعنةٍ أتلقَّاهـا مـن أصحاب الــ"بـار". يعـثرون في جيبـي عـلى خطـاب موجَّـه لـكِ. تغرقـكِ الدموع و.. حسنًا.. أنتِ تعرفين الباقي دون شكٍّ. ستقرئين على الـشاهد الحجري لقبري، سؤالي الحائر: "فعلًا يا نرجس؟!".

www.JudBooks.com

بينما أنا مُستغرق في تخيُّل كل هذه السيناريوهات، رأيتُ "نرجس" تسير باتِّجاهي. عند اقترابها منِّي، شعرتُ بـضعفٍ مُفـاجئ في جـسدي، ولـلـه الحمد كنتُ جالسًا، وإلا لسقطت. مرَّت بجـانبي، دون أن تنظـر إليَّ. لكنها نظرت باتِّجاهي. أنا مُتيقِّن من أنها كانت تبحث عنِّي، لكنهـا لم تراني. كانت ابتسامتها لا تزال معي.

لم أكن هكذا على الدَّوام. ليس الأمر كما تظنُّون. كل المشكلات التي أعاني منها، حدثت بسبب حبِّي لـ"سمرا".

ظهرتْ "سمرا" أمامي، فجأةً، في أحد الشوارع الضيِّقة المتفرِّعـة مـن الـسوق القـديم، المعبـق برائحـة التوابـل والمنـسوجات. حـين رأتنـي، تجمَّدت في مكانهـا. تجمَّـدتُ بـدوري. للحظـاتٍ قليلـة، تبادلنـا الكـلام بأعيننـا فقـط. في تلـك اللحظـات، اكتـسب الـشارع المُـزدحم هـدوءًا استثنائيًّا، كأنه يخلو إلا منَّا نحن الاثنين فقط. لم تتغيَّر عـلى الإطـلاق، لا تـزال بالـسِّحر والجاذبيـة نفـسهما، رغـم مـرور كـل تلـك الأعـوام. في

www.JudBooks.com

البدء، أحاط بنا التردُّد. كان بإمكاننا تجاهل بعضنا والادِّعاء بأن أحدنا لم يرَ الآخر، ثم مواصلة السَّير، بدلًا من فتح الجراح القديمة. لو فعلنا ذلك، لما شعرنا سوى بومضة ألم خاطفة، كانت ستنتهي بمجرد وصولنا لنهاية الشارع، ولما تبقَّى من أثرها سوى ابتسامة تعكس وجعنا، وبعدها نفترق.. كل واحدٍ منَّا في درب. لكن ذلك ليس ما نفعله، وإنما نسير باتِّجاه أحدنا الآخر، ونقف متواجهين، أمام براميل معجون الشَّطَّة. رائحة ذلك المعجون تحرق أنفي. تدمع عيناي من الألم. أحاول التحكم في دموعي، حتى لا تسقط من عينيَّ، وتخطئ في فهمها. لعلَّ الشَّطَّة هي السبب في الدموع المُتجمِّعة في عينيها، والتي أضافت لمسة عسلية للونهما الأخضر.

أتساءل عن السبب الذي يجعل الأطعمة الحارَّة تُكوِّن الدموع في أعيننا؟ لا بدَّ من وجود سبب عِلمي. لو أنني كنت أعرفه في تلك اللحظة، لقمتُ باستغلاله لفتح حوار معها. لكن الواقع هو أنني لم أعرف ماذا أقول، وكأن كل الكلمات التي أعرفها مُسِحَت من ذهني.

www.JudBooks.com

وسط الصخب الهائل بين جنبات السوق، أسمع كلمة "أهـلًا". الحقيقـة أنني لم أسمعها بأذنيَّ، لكنني قرأتُ شفتيها. أجبتُها:

- أهلًا. يصعُب تحمُّل ذلك.

أجابتني:

- نعم. أنت مُحِقٌّ.

تركَّزت نظراتها على براميل الشَّطَّة.

تسلَّلت أشعَّة الشمس مـن شِـقٍّ في المظلَّـة القماشـية الكبـيرة التـي تُغطِّي مدخل الدُّكَّان، واستقرَّ شـعاعٌ منهـا عـلى شَـعرها البُنِّـي الفـاتح. كانت هذه نهاية رحلته التي دامت ملايين السنين. مَـن كـان يـدري أن رحلة ذلك الشعاع ستقلب حياتي رأسًا على عقب؟

لم أشعر بأننا افترقنا منذ سنتين. كأننا جئنا الدُّكَّان معًا. امتدَّت يدي، دون وعيٍ منِّي، لتزيل شعاع الشمس عن شعرها.

www.JudBooks.com

- لا!

لكن صوتها المُعترِض وصل إلى مسامعي، متأخِّرًا. كنتُ قد انتهيتُ من جَمع خيوط الشمس من بين خصلاتها. قبضتْ يدٌ على رِسغي. التفتنا معًا لرؤية صاحب اليد.

صاحت حبيبتي:

- لا!

لكنها كانت تخاطب الرجل الآخَر، هذه المَرَّة. تردَّد عويلٌ موجوعٌ في جنبات السوق المزدحم. لم أرَ شفتيها، لكن صوتها اخترق أذنيَّ. ارتمت حبيبتي فوق جسدي النازف. تبع ذلك صوتٌ آخر. غطَّى شعرها وجههي. تبقَّعت خصلاته البُنِّية بالدم. سقطت قطرة عسل من عينها فوق شفتيَّ. اختلطت رائحة الدماء بروائح التوابل. تبدَّلت الأصوات المرحة التي تميِّز السوق بضجيجٍ مُزعجٍ للغاية.

www.JudBooks.com

قد تظنُّون أنني شخصٌ باردٌ، مُنعدم المشاعر، بسبب الأسلوب الـذي أقصُّ به الحكاية، لكن الحقيقة هي أنني آثرتُ الاستـسلام ذلـك اليـوم، فحين غادَرَتْ حبيبتي بغتةً، أخذتْ حياتي معهـا. التعبـير الحـزين الـذي ارتسم على ملامحها، هو الضربة التي أصابتني في مَقتـل. يقـع قـبري في عيني "سمرا" الحمراوين، أما قبرها هي فيقع أسفل شجرة في القرية. لا تزال ابتسامتها معي.

كل مشكلة مررنا بها، سـببها الحـبُّ. أنـا الآن مُجـبَرٌ عـلى اسـتكمال حياتي برصاصةٍ داخل رأسي. إنها هديةٌ من شقيق "سمرا" لي! عقلي يـأتي ويذهب، عادةً، ولكنه في بعض الأحيان يذهب دون عودة. كل ابتسامةٍ جميلةٍ تُعيدني إلى "سمرا". ليس في وِسعي حَـصر الأرواح التـي أُزهِقَـت فِداءً لابتسامة. رجاءً، لا تنظـروا إليَّ عـلى هـذا النحـو. لـيس الأمـر كـما تظنُّون.

www.JudBooks.com

www.JudBooks.com

5

تحيَّةً للعيون السُّود



www.JudBooks.com

www.JudBooks.com

كانت الساعة تمام السادسة، حين دقَّ المُنَبِّه. أغلقه "حسين"، قبل أن ينزل من الفراش العلوي في السرير ذي الطابقين. خلال ذلك، أيقظ صديقه "جمال" بركلةٍ خفيفةٍ من قدمه. "جمال" صديقه منذ الطفولة. هما من القرية نفسها، وكانا يذهبان للمدرسة ذاتها، لكن "حسين" ترك مقاعد الدراسة عقب الصف الثالث الابتدائي، بينما واصل "جمال" الدراسة لعامٍ كامل، ولعل هذا يُفَسِّر سبب مُعاملة الأخير له - في بعض الأحيان - كجاهلٍ وأحمقَ.

ما إن لامست قدماه الأرض، حتى تذكَّر "حسين" أن هذا النهار مُرتبط بحدَثٍ مهمٍّ. إنه يومهما الأخير في موقع البناء الذي يعملان فيه منذ 15 شهرًا. أسابيع مُتتالية من العمل الشاق المتواصل لـ 12 ساعة كاملة، وليلة تلو أخرى من نومٍ قليلٍ للغاية. مرَّت سنة ونصف السنة منذ مُغادرتهما القرية، على أمل الحصول على وظيفة. في الأشهر الثلاثة الأولى في "إسطنبول"، دبَّرا أمرهما بالكاد من خلال أعمالٍ يوميةٍ مُختلفة، إلى أن حالفهما الحظ بالعثور على عمل في موقع

www.JudBooks.com

البناء هذا. في البدء، تردَّد مدير الموقع في قبولهما، بسبب صغر سِـنهما، الذي لا يتجاوز السادسة عشرة، لكنه تنبَّه للميزة في استئجارهما، فذلك يُتيح له دفع أجـورٍ زهيـدة، وتجنُّـب التـأمين الاجتماعـي لهـما. هكـذا، انضم "حسين" و"جمال" للأطفال الثمانية الذين يعملون في الموقع. مـن بين العمَّال الستين في هذا المكان، لا يتمتـع بالتـأمين الـصحي سـوى 26 فقط، أمَّا الباقون فقـد وافقـوا عـلى العمـل دونـه. أن تـضطر لمُمارسـة أعمال مُرهِقة في هذا العُمر المُبكِّر أمـرٌ شـديد الـصعوبة، لكـنَّ المـشقَّة الأكبر بالنسبة لـ"حسين" هي الأشواق التي تعصف به لـ"بيرفين"، الفتـاة التي تركها في القرية.

غادرا سَكَن العُمَّال، ورائحة العَرَق العطنة المُنتـشرة فيـه، مُتَّجهَـين إلى الكافيتيريـا، حيـث تنـاول كـل مـنهما طبقًـا مـن الـشوربة المائلـة للبرودة. بدلًا من التَّوجُّه إلى موقع البناء، كما اعتـادا في الأشـهر الــ 15 الماضية، سارا نحـو مكتـب المُحاسِـب، لتـسلُّم مُـستحقَّاتهما عـن تلـك الفـترة. انـضمَّا للطـابور الطويـل مـن العُـمَّال البائـسين، ذوي الوجـوه

www.JudBooks.com

المُتعَبة الذين سيأخذون أجورهم ويعودون إلى "إسطنبول" للبحث عـن عملٍ جديد.

تميَّز حُبُّ "حسين" لـ"بيرفين" بطفوليَّةٍ وسـذاجةٍ تُـشبهان صـاحبهما، وبسِرِّية وزعزعة مثل عمله. كتب لها خطابين، منذ مُغادرتـه القريـة. في الحقيقة، لم يكـن بمقـدوره توجيـه رسـائله لــ"بيرفـين" مبـاشرةً، ولـذلك أرسلهما إلى شقيقته "زليخة". قال لنفسه حينها مُطَمْئِنًا:

- "زليخة" بنتٌ ذكية، وستفهم ما أقصد، ومَن أعني.

لكـن الواقـع أن الخطـابين كانـا يخلـوان مـن اسـم "بيرفـين"، مـن الأساس. ومع ذلك، توقع أن تفهم "زليخة" مرامه، وأن تبلِّـغ "بيرفـين" أشـواقه، رغـم أنـه لم يكتـب شـيئًا عـن اشـتياقه لأيِّ شـخص. تعمَّـد الغموض التامَّ، قدر الإمكان، حتى لا يتصيَّد لـه أحـد أيَّ زلَّـة. اعتمـدَ "حـسين" عـلى العبـارة التـي خـتم بهـا رسـالتيه: "تحيَّـاتي للعيـون

www.JudBooks.com

الـسُّود". صـحيحٌ أن لكـل مـن بالقريـة عينـين سـوداوين، إلا أن عينـي "بيرفين" هما الأكثر سوادًا. في الواقع، لم يكتـب الخطـابين بنفـسه، وإنمـا طلب من "جمال" فعل ذلـك، فـصديقه شـابٌّ مُـتعلِّم، في نهايـة الأمـر. عندما لم يتلقَّ ردًّا على رسالتيه، تجدَّد شـعوره بالنـدم لعـدم اسـتكماله تعليمه.

سَرَت همهماتٌ غاضبةٌ في أول الطابور الطويل، انتزعـت "حـسين" من أفكاره الكئيبة. تبادل نظرات متسائلة مع "جـمال". انتقـل الخـبر بأصواتٍ هامسةٍ بين الواقفين الـذين يـصارعون إحـساسهم بالـضعف والتَّعب. وصل إليهما، في نهاية الأمر: المُحاسِـب غـير موجـود أساسًـا! أبدى كل واحدٍ منهم رأيه في الأمر، وتنبَّأ بعـضهم بمـا سـوف يحـدث بعد ذلك. هؤلاء الرجال الذين عملوا كالعبيد ليل نهـار لــ 15 شـهرًا، دون كلمـة شـكوى واحـدة، بـدأوا يُعـبِّرون عـن تـبرمهم وسـخطهم بأصواتٍ خافتة، وكأنهم على شفا ثـورة. طـال الانتظـار، ومـرَّ الوقـت

www.JudBooks.com

ببُطءٍ يذكِّر بالشهور الماضية. تلاشت الأصوات الغاضبة، وحلَّ محلَّها صمتٌ مُتوتِّر.

كان "جمال" قد نسي تدوين عنوان موقع البناء في الخطابين. الأسوأ أيضًا أنه نسي كتابة عنوان عائلة "حسين" كاملًا على الظرفين. تسبَّب التأخير في تلقِّي رَدٍّ من أخته، في إصابة "حسين" بالأرق، رغم المشقَّة التي يتعرَّض لها طوال 12 ساعة يوميًّا. في إحدى الليالي التي استلقى فيها مُسهدًا على فراشه العلوي، تناول قلم حبر جاف، وكتب على السقف "بيرفين". حتى مع الظلام، كان اسمها مُضيئًا. عند تجصيص الجدران، كان يعمد إلى كتابة "بيرفين" مرَّات عديدة، مستخدمًا مجرفته الصغيرة، ثم يقوم بتغطية الأسماء بالجَصِّ. رؤية "جمال" لصديقه وهو على هذه الحال من العشق والحزن، أزعجته. حاول مواساته، والتخفيف عنه، دون جدوى. في النهاية، لجأ إلى سبِّه وشتمه، كما قام بركله في إحدى المرَّات. لكن "حسين" واصل تجاهله والاستغراق في أحلام اليقظة.

www.JudBooks.com

كانت أفكار "حسين" تحمله دومًا إلى ذكرياته في القريـة، وأحاديثـه مع "بيرفين"، خلال لقاءاتهما المُختلسة. أنهت "بيرفين" الـصف الخـامس الابتـدائي، قبـل أن يخرجهـا أهلهـا مـن المدرسـة. ذلـك قَـدْرٌ كـافٍ مـن التعليم للبنات، على كل حال، وسوف يتمُّ تزويجها في أقـرب فرصـة. أن تكون طفلًا في قريةٍ صغيرةٍ في "موش"، لأمرٌ صعب؛ لكن أن تكـون بنتًـا - فوق ذلك - فصعوبة أكبر. المأساة الحقيقية هي أن تكون تلك البنـت واحدة ضمن العرائس القاصرات، لكـن "بيرفـين" وردةٌ بَرّيـةٌ عنيـدة، لا ترضخ للضغوط. رفضت السماح لأهلها بتزويجها، وكلما أثـاروا المـسألة أحالت حياتهم جحـيمًا. كانـت تحـبُّ "حـسين" حقًّـا، لكـن طموحاتهـا كانت تتجاوزه بمراحل. لمَّحت له بـذلك، وصـارحته برغبتهـا في مُغـادرة القريــة. عذَّبتــه آمالهــا وأحلامهــا، فقــد أدرك أن مــشاعره القويــة والعاصفة تجاهها ليست كافيـة. لم يـصارح "حـسين" أحـدًا بيأسـه، ولا حتى "جمال".

www.JudBooks.com

دبَّت الحركة في الطابور، ما إن خرج رئيس العُمَّال من مكتبه. سرت همهمات خافتة بين الواقفين، لكنهم سرعـان مـا التزمـوا الـصمت. سـار رئيس العمَّال باتِّجاه رجاله، وأعلن بصوتٍ هادئ:

- يمكنكم تسلُّم جميع مُستحقَّاتكم من المكتب الرئيسي في "إسطنبول".

خيَّم الـصمتُ عـلى الجميـع، ثـم ارتفعـت أصـواتهم المُحتجَّـة. أدار رئيس العُمَّال ظهره لهم، مُغادرًا، ثم التفت نحوهم قائلًا:

- يُغادر الباص في العاشرة تمامًا.

أضاف:

- هل لديكم أيُّ سؤال؟

واصل العُمَّال الـصمت، ثـم أطرقـوا برؤوسـهم، وجرجـروا أقـدامهم باتِّجاه الـ"ميني بـاص" القـديم، الـصَّدِئ، الـذي سـيحملهم إلى المدينـة. أحسَّ "حسين" بالاضطراب والانزعاج، وامتلأ قلبه بالأسى.

www.JudBooks.com

إن كان هناك شخصٌ آخر، إلى جانب "حسين"، يشعر بلوعة الأشواق لـ"بيرفين"، وبالقدر نفسه من الحزن، فهي أمُّها. عقب سفر "حسين" بأسبوعين، اختفت "بيرفين". عندما لم تعد إلى البيت، تمتمت أمُّها بحرارة:

- لا تدعي أحدًا يؤذيكِ يا حبيبتي. كوني قوية.

منذ ذلك اليوم، وهي ترفع عينيها للسماء وتدعو لـ"بيرفين" مع كل أذان فجر.



خاض الـ"ميني باص" الطريق الطيني، مُتمهِّلًا. التفت "حسين" وألقى نظرة أخيرة، من النافذة الخلفية، على المبنى الذي انتهوا من تشييده. تمَّ تعليق لافتة فوق مدخله: "سجن أدرنة المُشَدَّد". التفتَ "جمال" بدوره، وشاهد اللافتة ذاتها. التقت أعين الولدين، ثم حوَّل كل واحد منهما نظراته عن الآخَر في حَرَج، وقد غمرهما شعورٌ بالذَّنب.

www.JudBooks.com

مع نهاية الطريق الطينـي، وبدايـة الطريـق الرئيـسي المُـسَفْلَت، تزايـدت سُرعة الـ"ميني الباص" القديم، واندفع نحو المدينة حاملًا العُـمَّال الكبـار والصغار، المُسَجَّلين والسِرِّيين، مُبتعدًا بهم عن ماضيهم الكئيب.

في طريقهما إلى المستقبل المُوغل في الغموض، أرسل "حسين" تحيَّتـه وأشواقه إلى العيون الـسُّود، بيـنما اكتفـى "جـمال" بـصَبِّ لعناتـه عـلى صديقه، وعلى تلك اللافتة اللعينة.



www.JudBooks.com

www.JudBooks.com

6

خطاب للجنة قراءة الرَّسائل في السِّجن



www.JudBooks.com

www.JudBooks.com

عزيزتي اللجنة:

أكتبُ لكِ هذا الخطاب من زنزانتي ذات الحراسة المُشَدَّدة. قد تتساءلين "لماذا؟".. أجيبكِ بالقول لأنني في السِّجن، وهذا سببٌ وجيه! لعلَّكِ تقولين لنفسك:

- حسنًا، إننا نعرف ذلك بطبيعة الحال. السؤال هو: ما الذي يجعلك تُوجِّه خطابك لنا؟ إننا نوشك على فقدان أبصارنا بسبب اضطرارنا لقراءة رسائلك التي لا تنتهي!

أقول لكم إن هذا تحديدًا هو السبب الذي يجعلني أكتب لكم أنتم، هذه المرَّة. أعني.. بالله عليكم.. ما هذه الوظيفة التي اخترتوها لأنفسكم؟ تجلسون طوال اليوم لقراءة خطابات كتبها مجموعةٌ من الغُرباء! لماذا أصلًا؟ والمصيبة أن هناك مَن يدفع لكم أجورًا مقابل هذا! (2060 ليرة، شهريًّا. إياكم والتَّهوُّر في إنفاقها!) عمومًا، ليس هذا هدفي من الخطاب. كي أكون صريحًا، لستُ متأكدًا من هدفي أساسًا (لقد

www.JudBooks.com

"استعرتُ" العبارات الأخيرة من إحدى قـصص الكاتـب "إلهـامي آلجـور"، وأرجو ألا يجعلكم ذلك تُقرِّرون إزالتها من خطابي).

لقد خرجتُ عـن الموضـوع الـذي كنـتُ أودُّ التَّحـدُّث فيـه. دعـوني أختـصر المـسألة. إننـي أتلقَّـى طلبـات مـن معـارفي في الخـارج (هـم يعتقدون أنهم في الخارج حقًّا) كي أكتب قصَّة إضافية واحـدة. أخـبرتهم بأن من الأفضل إبقاء مُراسلاتي قليلة، بدءًا مـن الآن، لأن أعـضاء "لجنـة قراءة الرسائل" بدأوا يفقدون أعصابهم بـسببي. إننـي أدفعهـم للعمـل ليل نهار، دون انقطاع. ما الذي يستحقُّ ذلك؟ صـارحتهم كـذلك بـأنني لستُ كاتبًا حقيقيًّا على الإطلاق، كل ما في الأمر أنك حين تنشأ في منـزل تعمل فيه الأم بالموسيقى، والأب صائغٌ ماهرٌ للكلمات، فإنك لا تملك إلا أن تصبح مثلهما، على نحوٍ ما.

دعوني أوضِّح لكم الأمر: صـغارًا، كُنَّـا نـستيقظ كـل صـباح عـلى عزف أمي على البيانو. كـان بيتنـا يتكـوَّن مـن حجـرتين. كُنَّـا نحـن

www.JudBooks.com

الأطفال ننام جميعًا في إحداهما، التي تضمُّ آلة البيانو. كل صباح، دون انقطاع، كانت أمي - باركها الله - تدقُّ على أصابع آلتها. صدِّقوني، لا يزال صدى ذلك الصوت يتردَّد في أذنيَّ، حتى اليوم. حين كبرتُ قليلًا، وذكَّرتها بالأمر، قالت:

- هل أنتَ أحمق يا بُنيَّ؟ أيُّ بيانو؟ بالله عليك! كانت ماكينة خياطة. كنت أعتمد عليها لكسب دَخل إضافي.

لكن صوت الماكينة في آذاننا كان موسيقى، وهذا هو لُبُّ المسألة، أليس كذلك؟ أعزَّائي أعضاء اللجنة، أغلب الظن أن لديكم أطفالًا - حفظهم الله - ولذلك اسمحوا لي بتوجيه نصيحة لكم: إن أردتم منحهم آذانًا موسيقية، فلا تهتموا بالغناء، بل بتمييزهم للإيقاعات. إن الموسيقار العبقري "عارف ساغ" يدين بجزءٍ كبيرٍ من موهبته لإيقاع الطواحين المائية في قريته، وهو صغير.

www.JudBooks.com

وهناك أبي. كان لديه أسلوب متميز في التعامل مع الكلمات. كانـت تنساب من فمه كالشِعر. لم ندرك، إلا حين كبرنا، أنها ليست شِـعرًا، بـل كلـمات فاحـشة. كـان - ولا يـزال - رجـلًا يحمـل حِـسًّا فُكاهيًّـا عاليًـا، وحصيلة لُغوية غنية من الكلمات البذيئة. هناك بعض الأشخاص الذين تناسبهم هذه اللغة، وحين تـسمعها مـنهم لا تـشعر بالانزعـاج مُطلقًـا. هكذا هو الحال مع أبي. حين يطلق سبابه وشتائمه، تشعر بأنـك تـسمع شِعرًا رقيقًا. في أحد الأيام، زارنا أحد أصدقائه في العمـل. انـزعج الرجـل للغاية، وشعر بالإهانة، حين لم ينطق أبي بكلمـة فاحـشة واحـدة. سـأله مضطربًا:

- ما بالك يا "طاهر"؟ هل ارتكبتُ فعلًا ضايقك؟

- ما هذا الكلام أيها الحقير الغبي؟

عندها فقط، أحسَّ صديقه بالارتياح.

www.JudBooks.com

حسنًا، ها قد أطلعتكم علـى نـشأتي ذات الجوانـب الثقافيـة، إلى أن وصلتُ إلى سِنِّ المدرسة.

كانت مدرستي الابتدائية في مدينة "ديار بكر". كنتُ تلميذًا مجتهـدًا. درجاتي جيدة. بل جيدة جـدًّا. لكننـي - مـع ذلـك - لم أكـن الأول. احتـلَّ "باهر" هـذا المركـز بجـدارة. كـان أكـثر زملائنـا اجتهـادًا، وصـاحب أعـلى الدرجات على الإطلاق. كنتُ أحقق المركز الثاني. "باهِر" مهذَّب، ونظيـف، وله مظهر مُنَمَّق. تميَّز خطُّه بالجمال. اختصارًا، كان "باهر" طفـلًا مثاليًّـا. كنتُ جيِّدًا، ولكن لا يمكن مقارنتي به. كان لديَّ عديـد مـن الأصـدقاء في المدرسة. لم يكن لـ"باهِر" صديق غيري. انتقلت عائلته من مدينـة أخـرى إلى "ديار بكر". هذا ما أتذكَّره، على الأقل. لم يكن باستطاعة أحـد إيـذاؤه على أيِّ نحو، لأنني لم أكـن لأسـمح بـذلك. ضـمَّتِ المدرسـة عـصابة مـن المُشاغبين الـصغار، وكنـتُ رئيـسها (لم يكـن نظـام الرئاسـة المـشتركة قـد ظهر بعد، حينها، بطبيعـة الحـال). عـلى كـل حـال، سرعـان مـا تبـيَّن لنـا

www.JudBooks.com

أننا لسنا الأقوى، فقد قابلنا مُشاغبين أكثر شراسة. ها أنا أخرج عن الموضوع، ثانيةً.



لم أعد أتذكَّر الكثير عن "باهِر". مع ذلك، موقفٌ واحدٌ لا يُبارح ذاكرتي، حدث مرَّة عقب انتهاء اليوم الدراسي. كُنَّا نسيرُ معًا مُتَّجهين إلى بيوتنا، نُصارع الجوع والإرهاق، في الأزقَّة والشوارع الضيِّقة. صاح "باهِر" بغتةً:

- اللـه! بسطرمة! هل تشمُّها؟

- أشمُّ ماذا؟

- بسطرمة.. بسطرمة!

- وما البسطرمة أساسًا؟

- تعرفها! البسطرمة! ذلك اللحم..

www.JudBooks.com

- أيُّ لحم؟

- ذلك النوع المليء بالتَّوابل. إنها شرائح رفيعة.

ضحكتُ، وأجبتُه:

- ما الذي تعنيه بـ"بسطرمة"؟ لا بدَّ أنك تقصد الرِّيَش. لا تكن غبيًّا! لا يوجد شيء اسمه "بسطرمة" أصلًا!

طوال طريقنا إلى البيت، رحتُ أسخر منه. عليَّ أن أذكر أنه لم يُظهِر أي انزعاج أو غضب. لم أكن قد سمعت بكلمة "بسطرمة" من قبل، أبدًا، ولا رأيتها طبعًا. حين وصلتُ المنزل، قصصتُ الحكاية بأكملها على أمي (عازفة البيانو، كما تعلمون)، وأنا مُستغرق في الضحك. قالت لي:

- هناك لحمٌ اسمه "بسطرمة" بالفعل، يا بُنَيَّ. إنه مُتَبَّل، ويقدَّم كشرائح رفيعة للغاية.

www.JudBooks.com

توقَّفتْ ضحكاتي على الفور. سامحني يا "باهِر". لم أخبرك بتأكيد أمي لكلامك.

أمَّا ما سأحكيه الآن، فقد حدث بعد مرور شهرين تقريبًا على وجودي في السِّجن. في إحدى الليالي، استيقظتُ فَزِعًا. في حلمي، كان "باهِر" يقول لي:

- البسطرمة. لا تنسَ البسطرمة.

لم أصدِّق ما رأيته، ولم أستطع تحديد ما إذا كنتُ قد استيقظت أم إن كنتُ لا أزال أحلم. بعد خمس وثلاثين سنة، وفي زنزانتي ذات الحراسة المُشَدَّدة، يزورني "باهر" في حلمي، ليذكِّرني بشيء. كان كما أتذكَّره في طفولتنا، بالضبط. كما تعرفون، أعزَّائي أعضاء اللجنة، فإننا نعدُّ قائمة أسبوعية بطلباتنا من الأطعمة، نسلِّمها للكافيتيريا. ذلك الأسبوع، كنتُ أنا و"عبد الله زيدان" ننوي مكافأة أنفسنا بشيءٍ مختلف، ولذلك قرَّرنا طلب بسطرمة. غادرتُ فراشي، ونزلتُ إلى

www.JudBooks.com

الطابق السُفلي لأتأكَّد من محتويات القائمة المُثبتة على لوح. كُنَّا قد نسينا كتابة البسطرمة. شكرتُ "باهِر"، وأضفتُها.

في تلك الليلة، انتابني حزنٌ هائلٌ، للمرَّة الأولى والوحيدة، منذ دخولي السِّجن. انقطعت علاقتي بـ"باهر" عقب انتهاء المرحلة الابتدائية، ولذلك فإنه بقيَ في ذاكرتي طفلًا صغيرًا. في أحد الأيام، منذ نحو عشر سنوات تقريبًا، كنتُ أتصفَّح الجريدة، عندما رأيتُ العنوان التالي: "انتحار أستاذ في جامعة دجلة". تحته بالضبط، صورة غير واضحة مأخوذة من بطاقة شخصية. لم أهتمَّ بقراءة الخبر، وواصلت تصفُّح الجريدة. شيءٌ ما دفعني للعودة لذلك الخبر. لم أصدِّق عينيَّ. مستحيل أن يكون "باهِر". حاولتُ إقناع نفسي بأنه مُجرَّد شخص يحمل الاسم نفسه. لكنها صورته، في حقيقة الأمر. عاهدتُ نفسي على البحث عن عائلته، لتقديم التعازي لهم. سيطر عليَّ الأمر لوقتٍ طويل، لكنني فشلتُ في العثور عليهم. "باهِر" هو الذي عثر عليَّ، عقب كل تلك السنوات. جاءني في الحلم، حريصًا على زيارتي. سامحني يا

www.JudBooks.com

"باهِر". رحمك اللـه يا صديقي العزيز. كنـتَ دائمًـا الأوَّل في كـل شيء، وسـتظلُّ تحتـلُّ مكانـة غاليـة في قلبـي إلى الأبـد. لم تـسنح لي الفرصـة لمصارحتك بهذا، أبدًا.

أعزَّائي أعضاء اللجنة:

لستُ متأكِّدًا كيف تورَّطتُ في هذه الحكاية، لكنها بـين أيـديكم الآن. وكما ذكرتُ سابقًا، فإن أصدقائي يواصلون الإلحاح عليَّ بكتابة قصَّةٍ أخـرى من داخل السِّجن. أصررتُ بدوري على الرفض، فلن يكون تـصرُّفي مُنـصِفًا حيال لجنتكم إن فعلتُ، فأنـا - في نهايـة الأمـر - أحمـلُ احترامًـا وإجـلالًا للعمل والعُمَّال. أردتكم فقط أن تعرفوا هذا الأمر. أرجـو لكـم يـوم عمـل سعيدًا، وأتمنَّى لكم تحقيق أعظم النجاح في وظيفتكم.

خالص مودَّتي..

www.JudBooks.com

7

عروس البحر



www.JudBooks.com

www.JudBooks.com

اسمي "مينا". أنا بنتٌ من "حماة" في "سوريا". غادرنا بلدنا منذ شهرين. أمسكتْ ماما يدي طوال الوقت، ولم تُفلتها أبدًا. في بعض الأحيان، مشينا؛ وفي بعضها الآخر، ركبنا باصات مُزدحمة أو شاحنات مُتربة. كانت الشوارع مليئة بالحُفَر، ما جعلنا نتقافز في أماكننا. لكن ماما لا تترك يدي. في الباصات، كان الناس يتكلَّمون باستمرار. بعضهم كانوا يبكون. كثيرًا. حسنًا، أنا أيضًا بكيتُ. قتلوا بابا في "حماة". لا أدري لماذا. بكت ماما حينها، كثيرًا. وأنا أيضًا بكيتُ.

إننا نسافر على الطريق منذ وقتٍ طويلٍ. مرَّة، مات طفلان. مات رجل عجوز أيضًا. حفر الرجال لهم قبورًا على جانب الطريق. قبور الأطفال كانت صغيرة. ارتمت والدتا الطفلين على القبرين، وراحتا تبكيان. كثيرًا. عندما حان وقت المُغادرة، رفضتا القدوم معنا، لكن الرجال قاموا بجرِّهما. قالوا لهما إننا يجب أن نواصل الرِّحلة.

www.JudBooks.com

توقَّفنا في مكانٍ ما. شعر الجميع ببعض الحماس. قال بعض الرجال إنه عندما يحلُّ الظلام، سنتَّجه إلى الشاطئ، ونركب في مركب. قالوا لماما إنها لن تستطيع أن تأتي. توسَّلتْ إليهم. ثم أخرجتْ ثلاث أساور من تحت قميصها، وأعطتها لهم. ثم قال الرجال: "أوكيه.. تعالي معنا".

لا يوجد بحر في قريتنا. لم أرَ البحر من قبل. ولا ماما. كان ظلامًا عندما ذهبنا للشاطئ، لذلك لم نرَ البحر هذه المرَّة أيضًا. وضَعَنا الرجال داخل مركب. كُنَّا كثيرين. ماما أمسكت بي، ولم تدعني أفلت منها. طلب منا الرجال أن نمسك جانب المركب بقوَّة. أمسكت ماما بي بقوَّة أكبر. تأرجح المركب كثيرًا. كان ظلامًا، فلم أرَ البحر. ضربني الماء المالح في وجهي. جعلني ذلك أتقيَّأ. النساء العجائز كُنَّ يُرددن الأدعية. ماما أيضًا. قالت لي ألا أخاف. قالت إن الرِّحلة لن تطول، وأننا سنصل سريعًا. لم أكن خائفة. دخل الملح في عيوننا، وجعلها تدمع. أنا بكيتُ

www.JudBooks.com

قليلًا. قال الرجال إن البحر هائج اليوم. كانوا يصيحون طوال الوقت. صرخوا لكي نمسك بالمركب جيِّدًا. ثم انقلب المركب.

ليس هناك بحر في قريتي. لدينا جدول صغير، تسبح فيه الأسماك بسُرعة. لم يكن الجدول صغيرًا جدًّا. كان كبيرًا بعض الشيء. هناك أشجار فوق الجدول. مرَّة، صنع لي بابا أرجوحة في إحدى تلك الأشجار، بجوار الجدول. صنعت لي ماما مرَّة دُمية من جوارب قديمة، لكنني نسيتها في الباص. كان بيتنا حلوًا.

سقطنا جميعًا في البحر. أمسكت بي ماما بقوَّة. ليس لدينا بحر في قريتنا، لذلك لا يعرف أحد منَّا السباحة. حتى ماما لا تعرف. بدأتُ أغوص في الماء مع ماما. ثم طفونا للأعلى قليلًا. ثم غطَّتنا أجساد الرجال، فعُدنا للأسفل من جديد. ماما لم تدع يدي. أمسكتني بقوَّة. الملح في الماء جعل حلقي يحرقني. ماما أمسكت بي، وأنا كنتُ أقول

www.JudBooks.com

لها في رأسي: "لا تخافي". أردتُ أن أبكي. قليلًا فقط. ماما لم تخف. ظلت تنظر إلى عينيَّ طوال الوقت. لم نخرج من البحر أبدًا.

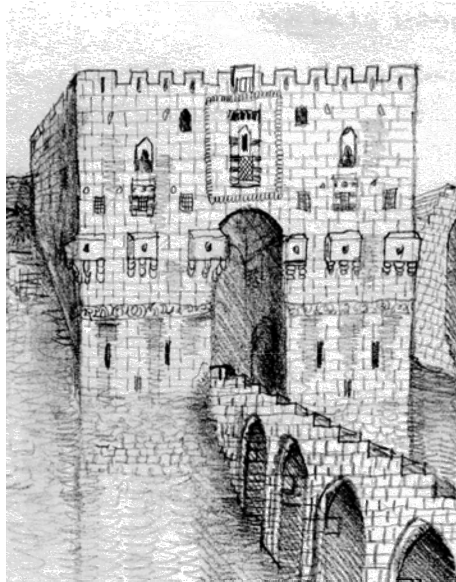
اسمي "مينا". عُمري خمس سنوات. تركنا "حماة" منذ شهرين. لم نَرَ شكل البحر من الخارج. أنا في قاع البحر منذ أسبوع، والآن صرتُ عروس بحر حقيقية. البحر الأبيض الكبير هو أمي، لأنه يضمني إليه بقوَّة، ويمسكني ولا يفلتني أبدًا. كل الأمهات يحببن بناتهنَّ الصغيرات بتلك الطريقة.



www.JudBooks.com

8

حلب المهروسة



www.JudBooks.com

www.JudBooks.com

- يبدو أنني كُنتُ مُخطِئًا، فالحياة في الواقع طويلةٌ جدًّا..

هل هناك شيءٌ غريبٌ وغير مألوف في كل ما حدث؟ لا أظـنُّ ذلـك. إنه مُجرَّد يوم آخر في الشرق الأوسط. انفجار قنبلـة، أو سُـترة مُفخَّخـة، في مكـانٍ مـا، مُخلِّفـةً وراءهـا عـشرات الأجـساد الجريحـة والمُـشوَّهة، وأسواقًا مُحطَّمة في أحياء فقيرة.

عدد القتلى: 68. بالحروف: ثمانية وستُّون.

أمَّا الانفجار الذي حدث منذ ثلاثة أيام، فقـد خلَّـف 43 قتـيلًا. ربَّمـا كان الموت أمرًا يوميًّا عاديًّا، لكننا نحنُ الذين نُعطيـه أهميـة أكـبر مـن حجمه الحقيقي. أعني أن الناس تموت طـوال الوقـت، بـل وفي قطعـان كبيرة العدد. تباينَ تأثير الانفجـار الـذي حـدث في "حلـب" اليـوم، مـن مكانٍ لآخَر، ففي "سيدني" كان الأستراليون يلتقون بعـضهم عـلى موائـد العشاء في المطاعم؛ أمَّـا الكنـديون الـذين كـانوا يُـسارعون للوصـول إلى وظائفهم، فلم يكن النبأ قد بلغهـم بعـد. سـيعرفونه بعـد قليـل، لكـنَّ

www.JudBooks.com

اهتمامهم به لن يتجاوز قراءة العنوان، دون السعي لمعرفة تفاصيل الخبر. في نهاية الأمر، هو مجرَّد انفجار جديد. بالنسبة لنا، "خطاي" هي الأقرب لـ"حلب". قريبةٌ جدًّا في الواقع، لدرجة أنه لو أصغى ناسها ببعض التركيز، لسمعوا الانفجار بآذانهم.

تشتهر "خطاي" بالمَزَّة والمُقبِّلات، وبالتنوُّع الهائل في أطباقها، الذي استقته من الثقافات المُختلفة التي تركت بصمتها على المحافظة. خلال العصور المختلفة للتاريخ، حافظ السُّكَّان المحلِّيون على كل وصفات الطعام والشراب التي أتى بها العرب، والأرمن، والسريان، والتركمان، والفُرس، والإغريق، في حال احتاجوا إليها يومًا ما. وكما تبيَّن لاحقًا، فقد احتاجوا إليها بالفعل، وبشكلٍ يوميٍّ أيضًا. كل مَن زار "خطاي" دون تذوُّق أطباقها الشهيرة، فاته الكثير.

68 قتيلًا.

www.JudBooks.com

لعرب "خطاي" طبق خاصٌّ يُعرَف بـ"كباب العرب". إنه ليس طعامًا، بل فنٌ وإبداعٌ حقيقيان. عليكَ أن تجرِّبه في محل الأسطى "حمد الله". إنه كافيتيريا للعُمَّال، في حقيقة الأمر، داخل السوق القديم. يبدو الأسطى "حمد الله" كشخصية داخل رواية. إنه نموذج لأصحاب المشاريع الصغيرة. مع نجاح مشروعه، بدأ المحل يستقطب السُّيَّاح أيضًا. أثار ذلك بعض القلق في نفس الأسطى، فاشترى نحو سِتِّ شجرات بلاستيكية وزَّعها في أركان مطعمه الصغير، في محاولةٍ منه لتجميل المكان. في الحقيقة، كانت تلك فكرة "صدر الدين" الحلَّاق، الذي يقع محلُّه في الجهة المقابلة من الشارع. قال له:

- عليك أن تغيِّر مظهر مطعمك يا أخي، فقد بدأ السُّيَّاح بالتَّردُّد على شارعنا. إن قُمنا بتجميل المكان، فسوف يتوافدون علينا بأعدادٍ أكبر فأكبر.

www.JudBooks.com

وجد الأسطى "حمد اللـه" الكلام منطقيًّا ومُقنعًا. هـذا هـو سـبب وجود الأشجار البلاستيكية في المكـان. لا يـزال الطعـام مـثلما كـان عـلى الدوام، لكن صار بإمكانك الآن تناوله وسط غابـة اصـطناعية. المـشكلة فقط هي أن الأشجار قبيحة للغاية، ومصنوعة مـن أردأ وأرخـص أنـواع البلاستيك، كما أنها مُغطَّاة بطبقات كثيفة من الغبار. لقد تغـيَّر المظهـر فعلًا، كما اقترح الحلَّاق، ولكن للأسوأ. ذلـك غـير مهـم، عـلى كـل حـال، فالأطباق المُقَدَّمة شهيَّة للغاية.

68 قتيلًا.

للمطعـم نـادلٌ واحـد فقـط. ابـن شـقيق الأسـطى "حمـد اللــه". بإمكانه خدمة الطاولات السَّبع معًا، في الوقت نفـسه، بـسهولة ويُـسر. بدأ العمل في المكان طفلًا، منذ تسع عشرة سنة. اسمه "بَرَكَة". لـ"بَرَكَة" طفلان. ماتت زوجته في حادث مروري. حين أقـول ذلـك، فأنـا لا أعنـي أنها كانت تقود سيارتها الـ"سـبور" بـسُرعة، واختلَّـت عجلـة القيـادة في

www.JudBooks.com

يدها، ما أدَّى إلى انقلاب السيارة؛ وإنما أنها تعرَّضت للدَّهس من باص نقل عامٍّ، وماتت على الفور. ذلك النوع من الموت الرخيص المُخصَّص للمواطنين من الدرجة الثانية. "بَرَكَة" عامِلٌ مُتفانٍ، يُمارس جميع مهامه بحماسٍ بالغٍ، ويضع الأطباق أمام الزبائن بطريقةٍ فنِّيةٍ. يستمتع بإسعاد الزبائن، ويُلاحظ ردود أفعالهم بدقَّة. لا تفوته حتى لمعة أعينهم عند إحساسهم بالرضا. لن تشعر بخيبة أمل أبدًا، أيًّا كان ما اخترته من قائمة الطعام، لأن اللحم هنا رائع حقًّا.

68 قتيلًا. جثثٌ مُشوَّهة.

المطعم رخيص لدرجة تُثير الدهشة. ذهبتُ هناك مع اثنين من أصدقائي. تناولنا كثيرًا من الطعام، حدَّ التُّخمة، وحين جاءت الفاتورة ظننَّا أن هناك خطأً في الحساب. كان ذلك هو التفسير الوحيد لصِغَر المبلغ المطلوب، لكنَّ أكثر ما أثار دهشتي في المكان هو قُدرة الأسطى "حمد الله" على المُحافظة على هدوئه، طوال الوقت،

www.JudBooks.com

مهما ازدحم المطعم. يقف في مكانه وراء منضدة مُرتفعة، يملأ الأطباق بالطعام ويناولها لـ"بَرَكَة"، بهدوء وثبات. كرَّرتُ زيارتي لمطعم الأسطى "حمد الله" ثلاث مرَّات في أسبوعٍ واحدٍ، وفي كل مرَّة يستقبلني الهدوء ذاته.

تعود أصول عائلة الأسطى "حمد الله" إلى مدينة "حلب". انتقل جدُّه إلى "خطاي"، منذ نحو ستين عامًا، جالبًا أسرته معه. كل مَن بالمدينة هنا يعرفهم جيِّدًا. توارثت العائلة المطعم، جيلًا بعد آخر. لا يزال أعمام الأسطى "حمد الله" يمتلكون دكاكين لبيع المنسوجات في السوق القديم بـ"حلب". قبل الحرب، اعتاد أفراد العائلة في البلدين تبادُل الزيارات. حين اندلعت الحرب، فَرَّ أقاربه من "حلب" - مثل الكثير غيرهم - وأتوا إلى "خطاي". نصب الأسطى "حمد الله" خيمة في حديقة بيته ذي الطابقين، وانتقل أفراد عائلته الـ47 إلى مسكنه. اضطر "حمد الله" إلى أن يطلب من مستأجر الطابق السُّفلي المُغادرة، لإفساح مساحة أوسع قليلًا لأقاربه. لم يتزوَّج الأسطى أبدًا. في صباه، كان والده

www.JudBooks.com

يصطحبه معه إلى "حلـب". هنـاك، التقـى ابنـة عمِّـه "رُقيَّـة"، وأُغـرم بهـا بجنون. حـين زوَّجتهـا أسرتهـا وهـي في الـسادسة عـشرة، أصـيب بإحبـاط شديد، وتقوقع على نفسه. لم يُحِب أي امـرأة أخـرى بعـدها. والآن، تُقـيم "رُقيَّة" مع زوجها وابنيها في إحدى حجرات الطـابق الـسُّفلي في بيتـه. كـل صباح، يعمد "حمد اللـه" للمُسارعة بالخروج من منزله، مُتجنِّبًا لقاءهـا. الحقيقة، إن "رُقيَّة" بدورها لا تزال تُكنُّ له مشاعر خاصَّة، لكنَّ الوقت قـد فات. لا تزال جميلة، وهو ما يجعله لا يقوى عـلى النظـر إليهـا. إن التقـى بها، عند مرورهما بالصُّدفة أمام أحـدهما الآخـر كـل بـضعة أيـام، فإنـه لا يستطيع تحويل نظراته عنها. باتَ الأسطى "حمـد اللــه" يـشعر بـالتَّوتُّر، وكأنهما يُخطِّطان بسِرِّية لـلـهروب معًا، وترك العالَم وراءهما، بكل ما فيـه ومَن فيه.

68 قتيلًا. اللعنة!

www.JudBooks.com

لهذا السبب تحديدًا، صار الأسطى "حمد اللـه" يتحاشى الوجـود في منزله، إلا لساعاتٍ قليلة، ويتعمَّـد التَّـسلُّل إليـه في سـاعةٍ متـأخِّرةٍ مـن الليل، عقب نوم الجميع. إنه يخـشى أن يقـرأ أحـد أفكـاره، ويعـرف أن مشاعره تجاه "رُقيَّة" قد اشتعلت من جديد. امتنع تمامًـا عـن الحـديث إلى "بَرَكة"، وكان كلامهما معًا قليلًا جدًّا في الأساس.

في الوقت الذي رغب فيه ألا يُلاحـظ أحـد عواطفـه الجيَّاشـة تجـاه المرأة التي تقطن الحجرة السُّفلية، تمنَّى لو طالت النظرات بينهما. تلك النظرات التي تزور مُخيِّلته كل ليلة، قبل أن تنتشله من عالَمه الصامت وترسله إلى النوم. فشل في تحديـد مـا إذا كانـت معرفتـه بـأن أنفاسـها تتردَّد في خليَّة النحل هذه التي يعيشون فيها، هـي مصدر راحـة لـه، أم مـصدر تعـذيب؟ هنـاك إجابـةٌ واحـدةٌ فقـط لهـذا الـسؤال.. "القناعـةُ كنزٌ لا يفنى". ها هما الآن، عقب كل تلك الـسنوات، يظلـلـهما سـقفٌ واحد. في مثل هذه الحالات، تبوء كل محاولاتـك لإسـكات طـائر الأمـل الـذي يـشدو فـوق سـطح بيتـك، بالفـشل. يُمكنـك أن تهـشَّ ذلـك

www.JudBooks.com

الطائر نهارًا، لكن ما إن يُقبِل الليل، وتخلد إلى فراشك، وتُغمض عينيك، حتى يملأ الدنيا بتغريده. حتى النوم ليس حلًّا. في حلمك، يُمسي الطـائر أكثر جرأة، بل أكثر وقاحة. الأسوأ من كل ذلـك هـو اسـتيقاظك صـباحًا لتكتشف بأن عليك بدء يوم جديد، بكل تفاصيله. سوف يتمهَّـل اليـوم في ارتداء ثيابه، ربما عنـدما يتـأخَّر قلـيلًا.. سـوف.. كـلَّا! لا يمكنـه حتـى مجرَّد التفكير في ذلك.

السوق في "حلب" يبدو كمشهدٍ تمَّ تثبيـت الـصورة عليـه، في فـيلمٍ سينمائي. لا بضائع في الدَّكاكين، سوى اليأس. منـذ بـدء الحـرب، فقـدت الأسواق بهجتها، وألوانهـا وروائحهـا. لم يعـد النـاس يـتردَّدون عليهـا إلا للضرورة، لشراء أو بيع كميـات ضـئيلة مـن الأطعمـة. صـارت أجواؤهـا تذكِّر بكآبة المستشفيات.

68 جُثَّة مُشوَّهة.

www.JudBooks.com

"رُقيَّـة" مـن بيـنهم. قبـل ذلـك بيـومين، تركـت ابنيهـا في "خطـاي"، وغادرت مع زوجها إلى "حلب" لإحضار مزيد من حاجاتهما، من بيـتهما هناك. توجَّها إلى السوق لشراء طعام العشاء. على فكـرة، هـل تعلمـون أن "خطاي" تشتهر أيضًا بالكُنافة؟

هتف القاتل الانتحاري، في قلب السوق:

- الـلـه أكبر!

بينما كان جسمُ "رُقيَّـة" يتفتَّـت إلى أشـلاء، في سـوق "حلـب"، كـان الأسطى "حمـد الـلــه" يُـؤدِّي صـلاته عـلى سـجَّادة الـصلاة الخـوص في الجانب الخلفي لمطعمه في "خطاي". رفع ظهره من السجود، وقال:

- الـلـه أكبر.

في تلك اللحظة، شعر بألمٍ في صدره. فكَّر بأسى:

- بدأتُ أشيخ.

www.JudBooks.com

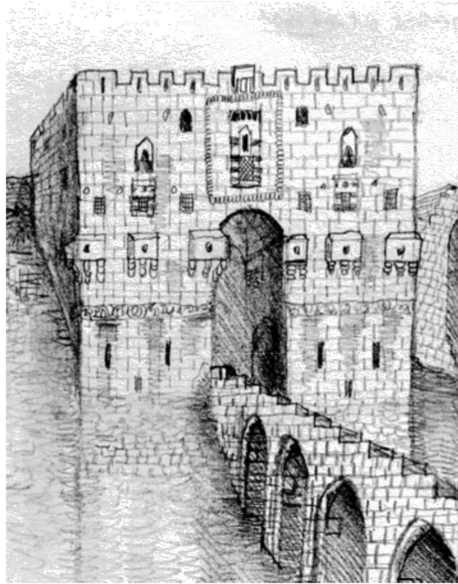
الجُبن هو الذي يُضفي المذاق الرَّائع على الكُنافة. لـ"خطاي" طُرُقها الخاصَّة في إعداد هذه الحلوى. عندما يطلبها الزَّبائن، يُحضِرها الأسطى "حمد اللـه" من محل الأسطى "جميل" الكنفاني. يبرع "حمد اللـه" في صُنعها بمهارة، لكنه توقَّف عن ذلك ما إن افتتح الأسطى "جميل" دُكاَّنه. السوق يسع الجميع، ولذلك لم يكن من اللائق أن يُنافس جاره. على كل حال، إن أردتم تجربة أفضل كُنافة على الإطلاق، فعليكم بزيارة "كنفاني خطاي" في "السوق الطويل".

بعد بحث دقيق بين الأشلاء المُتطايرة، نجح زوج "رُقيَّة" في لملمة بعض أجزاء جسدها، التي تعرَّف إليها بفضل التصاق نُتفٍ من فستانها بها. لم يستطع الأسطى "حمد اللـه" تحمُّل حضور الجنازة، ولا زيارة قبرها فيما بعد. مساء اليوم التالي لدفنها، أقفل باب المطعم، وأخرج جميع الأدوية التي يحتفظ بها فيه. ابتلع كل قرص عثر عليه، ثم شرب زجاجة من دواء الكُحَّة. تمَّ إغلاق المطعم لثلاثة أيام، حدادًا على روح صاحبه. يُدير "بَرَكة" المكان الآن، بينما يعمل "جمعة" -

www.JudBooks.com

زوج "رُقيَّة" - نادلًا لديه، ويتولَّى ابناها تأدية مهام النظافة. يمكن رؤية الأربعة وهم يُمارسون عملهم بنشاط، في أي وقت. إذا وجدتَ نفسك في المنطقة، قُم بزيارة مطعم الأسطى "بَرَكة"، واحرص على تناول طعامك هناك، إذ لا يوجد ما هو ألذُّ من "كباب العرب".

إن أطباق "خطاي" هي الأقدم في العالَم، على كل حال.



www.JudBooks.com

9

انظري ماذا فعلتِ يا "آسومان"!



www.JudBooks.com

www.JudBooks.com

أيقظتني الحركة المُفاجئة للباص. كُنتُ أجلس في الصفِّ الثـاني وراء السائق. كانت الساعة الثانية صباحًا، وقد نام أغلب الرُّكَّاب. كنا نـصعدُ تَلًّا ببُطءٍ، وأمامنا شاحنة. أغمضتُ عينيَّ، آملًا أن أُعاود النوم. فتَّحتهما، بعد بضع دقائق، لأكتشف أننا لا نزال نسير بالبُطء نفسه، ونحافظ على مسافة المـترين ذاتهـا التـي تفـصلنا عـن الـشاحنة. تجاوزتنـا الـسيارات الأخرى، ومـرَّت مُـسرِعة، بيـنما اسـتكان سـائقنا لـلــهدوء، وبـدا راضـيًا ومستمتعًا بقيادته على هذا النحو. قُمتُ من مكاني، مُتَّجهًا إلى مقدمـة الباص. اقتربتُ من أُذن السائق، وسألته:

- لِمَ لا نزال وراء هذه الشاحنة، يا أسطى؟ ما الأمر؟

نظر إليَّ عبر المرآة الصغيرة أمامه، وأجابني:

- لا شيء على الإطلاق. إننا نتنزَّه، ونتأمَّل المناظر البديعة حولنا. هل لديك مشكلة في ذلك؟

www.JudBooks.com

- كلَّا. كنتُ أتـساءل فقـط، لكـن انظـر لكـل هـذه الـسيارات التـي تتجاوزنا، و...

قاطعني قائلًا:

- استرِح..

أومأ برأسه تجاه مقعد المُضيف، الذي يقع بجواره. تردَّدتُ. سألني:

- هل أنت طالبٌ يا بُنيَّ؟

قُلتُ وأنا أجلس على المقعد الذي أشار إليه:

- نعم. كلية الحقوق بجامعة "أنقرة".

- جميل! كلية جيِّدة.

قُلتُ وأنا أُحاول كتم إحساسي بالزَّهو:

- نعم. لا بأس بها.

حرَّك السائق رأسه من جديد، مُشيرًا إلى الأمام:

www.JudBooks.com

- انظر يا بُنيَّ! هل ترى ذلك؟

كان من المستحيل عدم رؤية الشاحنة العملاقة أمامنا. وجَّهني قائلًا:

- انظر جيِّدًا!

أضاف:

- ماذا ترى؟

- ماذا تعني؟

- المرأة!

نظرتُ ثانيةً. رأيتُ صورتين لامرأة على مُؤخِّرة الشاحنة. للدِّقَّة، كانتا صورتين مُتماثلتين، ولكن من زاويتين مُتقابلتين. صُـوَرٌ مـن النـوع الـذي تراه على جميع الشاحنات تقريبًا. سألته:

- ما بها المرأة؟

- إنها "آسومان"!

www.JudBooks.com

- اسمها "آسومان"؟

تنهَّد قائلًا:

- نعم. أنا أعرف هذه المرأة. في الحقيقة، أنا أعرفها جيِّدًا.

ابتسمتُ، وأجبته:

- حسنًا. إن هذه الصُّوَر مُنتشرة على جميع الشاحنات أصلًا!

- صحيح، ولكن هناك صور عديدة مُختلفة. ليست جميعها لـ"آسومان".

قُلتُ بلا مُبالاة:

- ربَّما. لم تستوقفني المسألة من قبل.

- ولا أنا. صدِّقني. إلى أن التقيتُ "آسومان".

صحتُ بدهشة:

- هل تعني أنكَ تعرف هذه المرأة حقًّا؟

www.JudBooks.com

- نعم. طبعًا. لقد تقابلنا في أحد بارات "إسطنبول"، منذ ستَّة أعوام.

- هل أنتَ جادٌّ؟ لا بدَّ أنك تمزح!

رمقني بنظرةٍ طويلةٍ، ثم تناول علبة سجائره الـ"بارليمنتس" ومـدَّها نحوي. تردَّدتُ في بادئ الأمر. قال مُشجِّعًا:

- خذ واحدة. هيَّا!

أطعتُه. أخرج واحدةً لنفسه أيضًا، دسَّ طرفها في زاوية فمه. كان منتصف شاربه قد استحال لِلَّون البُنِّي، بسبب سنوات تدخينه الطويلة. أشعل سيجارته أوَّلًا، ثم ناولني الولَّاعة. استنشق نَفَسًا طويلًا، اندفع من بعده دخان كثيف من فتحتي أنفه، وانتشر في الباص. فتح نافذته قليلًا، وتململ في مقعده، إلى أن استقرَّ على وضعٍ مُريح. كان يتأهَّب لقصِّ حكايته مع "آسومان"، دون شكّ. أسندتُ ظهري إلى المقعد، مُحاولًا أن أرسم الاهتمام على ملامحي. لأسمعه إذن، طالما أنني لن أستطيع معاودة النوم.

www.JudBooks.com

- كلما استدعى الأمر ذهابي إلى "إسطنبول"، كنتُ أمضي بعض الليالي هناك في البارات.

أخذ نَفَسًا طويلًا من سيجارته، وهو لا يزال يُحدِّق في صورة "آسومان". واصل حديثه قائلًا:

- التقيتُها للمرَّة الأولى في أحد بارات "أك سراي". كانت تُغنِّي هناك. كم كان صوتها عذبًا! لن تصدِّقني، لكنني أؤكد لك بأنه حُبٌّ من أوَّل نظرة. تمامًا كما في الأفلام. لم أستطع تحويل عينيَّ عنها. نجحتُ في أن ألفت نظرها. على كل حال، سوف أختصر الحكاية. ذهبتُ إليها لاحقًا، وعرَّفتُها بنفسي. قالت إن اسمها هو "آسومان"، ثم صافحتني. أحسستُ حينها بأنني أقبض على جمرةٍ من نار. اشتعل كل جسدي. قُلتُ لنفسي: "فِهري، لقد أوقعت نفسك في مصيبة!".

واصل حديثه، قائلًا:

www.JudBooks.com

- لن يفهمك أحد، أبـدًا، قـدر فهمـك أنـت لنفـسك. ألـيس كـذلك؟ خفتُ ممَّا أنا مُقبِلٌ عليه. طلبتُ منها أن نُغادر البار، فاقترحتْ أن أعود في اليـوم التـالي، لكننـي أخبرتهـا بـأنني سـأكون مُـسافرًا عـلى الطريـق. سألتني إن كنتُ سائق شاحنة، فقلتُ لها إنني سائق باص. سألتني عـن وجهتي. قُلتُ لها "ديار بكر". علَّقت بالقول: "لا بأس. المـرَّة المُقبلـة إذًا يا أسطى". لم أشأ أن ألِحَّ عليها. بعد أسـبوع تقريبًـا، كُلِّفـتُ برحلـة إلى "إسـطنبول". لا أدري كيـف وصـلتُ إلى هنـاك أصـلًا! كنـتُ أسـير عـلى السحاب، وقلبي مشتعل بالنيران.

استنشق نَفَسًا جديدًا، ثم أطلق من فمه كمية هائلـة مـن الـدخان غطَّـت كامـل رأسـه. مـدَّ إصـبعه الـصغيرة، باليـد ذاتهـا التـي تحمـل السيجارة، وحرَّكها داخل أذنه، يُنظِّفها. استطرد بعدها قائلًا:

- على كل حال، عُدتُ إلى البـار، وهـذه المـرَّة غادرتـه وهـي معـي. وقفنـا لنتنـاول بعـض الـشوربة في الطريـق. أحسـسنا بأُلفـةٍ مُتبادلـةٍ،

www.JudBooks.com

وتحدَّثنا لساعات وساعات، وأفضى كل واحد منَّا بهمومه للآخَر. انتهى الأمر بأن بِتُّ في منزلها تلك الليلة. كان عليَّ أن أُغادر إلى "ديار بكر" ظهيرة اليوم التالي. على كل حال، سأختصر لك الحكاية. دامت الأمور بيننا على ذلك النحو، لعامٍ كاملٍ. كلَّما زرتُ "إسطنبول"، أقمتُ معها. في النهاية، طلبتُ منها أن تأتي معي إلى "ديار بكر". قُلتُ لها: "سأستأجر لكِ شقَّة. بإمكانكِ ترك العمل إن أردتِ". كانت تلك كلماتي لها بالضبط..

قاطعته:

- ما هذا الكلام يا أسطى؟ يبدو كحوارٍ لَزِج في مسلسل تركي عاطفي!

هزَّ رأسه ببُطءٍ. ابتسم مُحاولًا إخفاء إحساسه بجرح مشاعره، وقال:

- لا بأس. لن أزعجك ببقيَّة الحكاية إذًا.

بادرتُه بالاعتذار:

- لا.. أنا آسف. كُنتُ أقصد فقط أن ما مررتَ به يُشبه المسلسلات.

www.JudBooks.com

- صدِّقني يا بُنيَّ، هكذا كانت حكايتنا بالضبط.

أمسك بالميكروفون، وقام بالنداء على المُضيف. أتانا الرجل يجرُّ قدميه جَرًّا، وهو يُغالب النُّعاس. قال له السائق:

- أحضر لنا كوبين من القهوة القوية.

أردف آمِرًا:

- ولا تَنَم خلال ساعات العمل. اذهب وألقِ نظرة على الرُّكَّاب.

أحضَرَ لنا القهوة على الفور. واصل السائق حديثه:

- على كل حال يا بُنَيَّ، دمَّرتُ بيتي من أجل "آسومان". هجرتُ زوجتي وأطفالي الثلاثة. استأجرتُ لها مسكنًا في "ديار بكر"، وأحضرنا مأذونًا عقد قِراننا. تمَّ كل شيء في إطار ديني صحيح. لم أطلِّق زوجتي الأولى، ويشهد الله أنني حرصتُ على رعايتها، وإرسال المال لها شهريًّا، كنوعٍ من النَّفَقة مثلًا. على كل حال، لن أضجرك بتلك التفاصيل. أقول لك فقط إن التجربة لم تستطع الصمود في

www.JudBooks.com

نهايـة الأمـر. هجرتنـي "آسـومان"، واختفـتْ. عُـدتُ إلى البيـتِ يومًـا، فوجدته خاويًـا. أخـذتْ كـل شيءٍ معهـا. تركـت لي ورقـة كتبـتْ فيهـا: "أخذتُ الأثاث عوضًا عن النَّفقـة. لا تُحـاول البحـث عنِّـي - آسـومان". أمضيتُ تلك الليلة في فندق. صباح اليوم التالي، اشتريتُ باقةً من الورد، وحملتها لزوجتي الأولى. قُلتُ لنفسي: "زوجتي لا تحمل ضـغينة لأحـد، أبدًا. وهي تتفهَّم مثل هذه الأمور". حين رأتني، تناولت الوَرد من يدي، وراحت تضربني به عـلى رأسي، وهـي تلعـن اليـوم الـذي وُلِـدْتُ فيـه. حسنًا، كي أكون مُنصِفًا، كان معها كل الحَقِّ، لكنني ظننـتُ أنهـا مُجـرَّد مسألة وقت إلى أن تهدأ، وأنها ستسامحني حتمًا، ولو بعد حين. لكننـي كُنـتُ مُخطئًـا. أصرَّت عـلى الطـلاق منِّـي. وبقيـتُ وحيـدًا، أُعـاني آثـار حماقتي.

واصـل النظـر إلى الـصورتين المُلـصَقَتين عـلى مُـؤخِّرة الـشاحنة، زفـر بتنهيدةٍ حارَّةٍ، أعقبها بالقول:

www.JudBooks.com

- انظري ماذا فعلتِ يا "آسومان"! لقد هدمتِ بيتي، ودمَّرتِ حياتي.

"آسومان".. "آسومان"..

التفت نحوي، قائلًا:

- هكذا هو الأمر إذن يا بُنيَّ. هذه هي حكاية "آسومان".

عاود النظر إلى صورتي الشاحنة، وقال:

- كانت تعمل كـ"موديل"، بين الحين والآخر. هاتان الصورتان من إحدى جلسات التصوير الاحترافية التي قامت بها. لديَّ النُّسخة الأصلية، أساسًا، لكنني حين أرى صُوَرها على السيارات والشاحنات، لا أملك إلا أن أتبعها، لأطول وقتٍ ممكن. لِحُسن الحظِّ، لم تعد صورها واسعة الانتشار، وإلا لما وصلتُ إلى وجهتي أبدًا!

نظر نحوي، مُبتسمًا بمرارة. قُلتُ له:

www.JudBooks.com

- ولكن أليست القيادة بهذا الشكل خطيرة بعض الشيء يا أسطى؟ أعني أنك منغمس في قَصِّ تفاصيل الحكاية، وتُغمض عينيك بين الحين والآخر وأنت تستعيد ذكرياتك..

- لا تقلق يا بُنيَّ. المسألة تحت السيطرة! ولكن حينما تحلم بشيءٍ، فإنك تُغمض عينيك، عادةً. بتلك الطريقة، يفشل الآخرون في رؤية حلمك ومعرفته. إنك تُخبِّئ الحلم حتى عن نفسك. شخصيتك الحقيقية هي الإنسان الذي تكونه في الحلم.

- ما الذي يسعني قوله يا أسطى؟ لقد عقد كلامك لساني!

كُنتُ أودُّ أن أقول له:

- لم يبقَ إلا أن تضع أقوال "نيتشه" على لسان "آسومان" هذه! "بعد أن اكتشفتني، لم يكن العثور عليَّ إنجازًا. المُعضلة الآن هي كيف تفقدني".

لكنني لم أقل ذلك، طبعًا، بل قُلتُ ناصِحًا:

www.JudBooks.com

- أنت سائق باص، وأرواح كل هؤلاء الناس بين يديك. عليك أن تتوخَّى الحذر، كي لا يتعرَّض أحد لمكروه.

- بالطبع. هذا أمرٌ بديهي، لكنني في بعض الأحيان، أفكِّر في أن هناك كثيراً من الوسائل التي تُؤدِّي للموت.. يُمكن للإنسان أن يموت مُحترقًا أو غريقًا، أو أن يسقط من مكانٍ مُرتفع. يُمكن للموتِ أن يكون بطيئًا ومُؤلمًا، أو سريعًا كلمح البصر. قد تموت بطلًا، أو بلا هدف على الإطلاق. كل هذه الأمور تنطبق على الحياة أيضًا. غريب، أليس كذلك؟

- أنتَ نفسك غريب يا أسطى. لا أعني شيئًا سيِّئًا، بل أقصد أنك مُثير للاهتمام.

تمعَّنتُ في صورة "آسومان"، على الشاحنة أمامنا. كانت مُستلقية على جانبها، وقد أسندت ذراعها إلى مخدَّة، ووضعت يدها على خدِّها، وهي تنظر إلى الكاميرا بإغراء، بوجهٍ يُغطِّيه مكياج ثقيل. قُلتُ لنفسي:

- تلك الـ"آسومان" كائنٌ صعبٌ وعجيب!

www.JudBooks.com

انتبهتُ على ابتسامة السائق الماكرة. بادرني بالقول:

- أنت تدرس كي تُصبح مُحاميًا، أليس كذلك؟

- هذه نيَّتي..

- ما شاء اللـه! أنتَ عبقري زمانك كما يبدو! كان اللـه في عون مَن يحتاج إلى خدماتك!

- ماذا تقصد يا أسطى؟

أجاب مُبتسمًا:

- انظر يا بُنَيَّ. لا بدَّ أنكَ كُنتَ نائمًا حين أُصيب الباص بعُطل، واضطُّررنا لربطه بالشاحنة التي أمامنا، كي تصعد بنا الجبل. انظر إلى المقدمة، وسوف ترى الحبل.

www.JudBooks.com

لم أرغب في تصديقه. مِلتُ بجسدي قليلًا، وألقيتُ نظرة على مُقدِّمة الباص. أحسستُ بالحرج. هناك حبلٌ فعلًا. كانت "آسومان" هي التي تجرُّنا. تزايد شعوري بالحرج، وأردتُ أن أصرخ بغضب:

- أوقف هذا الباص الملعون! سأنزل هنا!

لكن الواقع أنه لم يكن هناك ما يُمكنني فعله. لقد ابتلعتُ طُعم هذا المقلب. اتَّسعت ابتسامة السائق الساخرة، أو هكذا خُيِّل إليَّ على الأقل. استدعى المُضيف، مرَّةً أخرى:

- رافِق الولد حتى مقعده، واعطِه بعض الكولونيا، علَّه يستعيد وعيه.

غمغمتُ بغيظ:

- برافو يا أسطى! جعلتني أصدِّق حكايتك.

عدتُ إلى مقعدي. تفاقم غيظي وحَرَجي، حين عاد إليَّ المُضيف ببعض الكولونيا فعلًا. سكب قطرات منها في كفَّيَّ، وقال بابتسامةٍ عريضةٍ:

www.JudBooks.com

- لا بأس. ستتجاوز المسألة.

رفعتُ عينيَّ لأجد السائق ينظر إليَّ من خلال مرآته، بالابتسامة الساخرة نفسها.

رغم مرور سنوات كثيرة، فإنني تعرَّفتُ عليه فور رؤيتي له في مكتبي. إنه الأسطى "فهري"، لا غير. رحَّبتُ به بحرارة، وطلبتُ له كوبًا من الشاي. غطَّى اللون الرمادي شعره، أما شاربه الكَثُّ فقد أصبح مصفَرًّا. فقد شيئًا من وزنه، وتقوَّس ظهره قليلًا. لم يعرفني، لكنَّ ذلك لم يدهشني، فقد مرَّ وقت طويل للغاية. على كل حال، لم يكن في وضع يسمح له بتمييز الآخرين، فقد تعرَّض ابنه الطالب الجامعي للاعتقال، عقب مُشاركته في إحدى المُظاهرات. أمضى شهرين في البحث عن مُحامٍ يقبل القضية، دون جدوى؛ إلى أن رشَّحني له بعض الأصدقاء. قُلتُ له:

- حسنًا، دعني فقط أُلقِ نظرةً على الملف. عُد غدًا لنُناقش الأمر.

www.JudBooks.com

وقف وأمسك يدي مُمتنًّا، ثـم أحنـى رأسـه مُحيِّيًـا، قبـل أن يُغـادر. حيَّيتُه أنا أيضًا بانحناءةٍ من رأسي، وأوصلتُه إلى الباب. قبلتُ قضية ابنه. أُطلِقَ سراح الفتـى بعـد أربعـة أشـهر، وبرَّأتـه المحكمـة. بعـدها بمُـدَّةٍ وجيزة، عاد "فهري" لزيارتي، مُصطحبًا ابنه هذه المرَّة. جـاءا يحمـلان لي أزهارًا وشوكولاتة. سألني الأب مُعاتبًا:

- لِمَ رفضتَ أن تأخذ أتعابك منِّي؟

أجبتُه:

- أنتَ لا تتذكَّرني، أليس كذلك؟

اعتلت وجهه الدَّهشة، ثم نظر إليَّ مُتفحِّصًا، مُحاولًا وضعي في خانة مُعيَّنة. استسلم أخيرًا، وقال:

- أرجو المعذرة، ولكن أين تسنَّت لي معرفتك؟

- "آسومان"..

www.JudBooks.com

تجمَّد في مكانه، ذاهلًا. سرعان ما تحوَّلت البسمة على شفتيه إلى ضحكات مُرتفعة. وقف واحتضنني بين ذراعيه:

- ياه! هل تتذكَّر ما قُلتُه لك يومها؟

- ما الذي قُلتُه يا سيِّد "فهري"؟

- ألم أُخبرك بأنك ستُصبح رجلًا ذا شأن؟ وأن مَن يطلب منك التَّرافُع عن قضاياه محظوظٌ للغاية؟ أليس ذلك ما قُلتُه؟

- نعم.. نعم.. هذا ما حدث بالضبط يا عزيزي.

لاحت السعادة على ملامحه. ثرثرنا معًا لبعض الوقت، كصديقين قديمين. التفت نحو ابنه، شارحًا:

- علاقتنا قديمة.

ثم قصَّ عليه حكاية الباص، مُتجنِّبًا جميع التفاصيل المُحرِجة. وقفا، إيذانًا بالرحيل، فرافقتُهما إلى الباب. بعد خروجهما، هتفتُ وراءه مُناديًا:

www.JudBooks.com

- سيِّد "فهري"!..

- نعم يا بُنَيَّ؟

تناولتُ زجاجة "كولونيا" من فوق مكتب السكرتيرة، وسكبتُ القليل منها في كفِّه. قُلتُ له مُذكِّرًا:

- لا بأس. ستتجاوز المسألة.

منحني ابتسامة دافئة، وقال:

- نعم.

أضاف:

- حان دوري لأردَّ لك الجميل، ولكن كيف؟

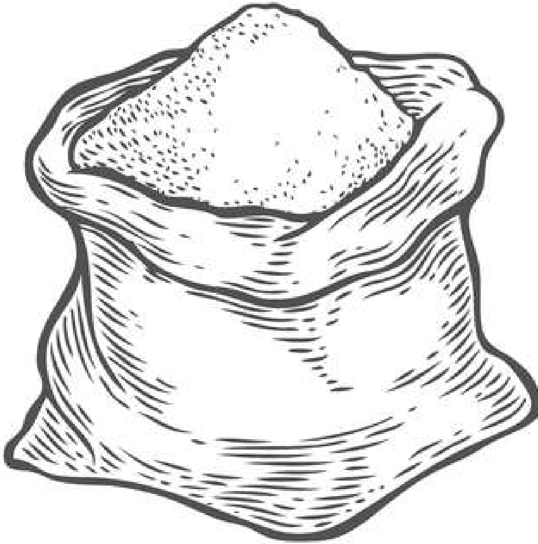
سار مُبتعدًا، وهو يهزُّ رأسه في حيرةٍ.

www.JudBooks.com

www.JudBooks.com

10

تصفية حسابات



www.JudBooks.com

www.JudBooks.com

كنتُ في الثَّامنـة، وشـقيقي "نـور الـدين" في التَّاسـعة. كـان ذلـك في 1981. سنةٌ صعبةٌ لنا نحـن الاثنـين، شـهد فيهـا البلـد انقلابًـا عـسكريًّا عنيفًا. لم نفهم حينها معنى الحدث بالضبط. على كل حال يا أمِّي، ليس لكل هذا علاقة بما سوف أقوله لكِ الآن.

انتهى السُّكَّر مـن البيـت. عـادةً، كُنَّـا نـشتريه بـالكيلو مـن الـدُّكَّان القريب، لكن ذلك كان غاليًا بعض الشيء، ولذلك قـرَّرت أنـتِ في ذلـك اليوم أن ترسلينا لجلب خمسة كيلو جرامات من محـل الجُملـة، الـذي يبعد عن بيتنا نحو كيلو متر واحد. الخمسة كيلـو جرامـات مـن دكَّـان شارعنا تتكلَّـف 300 لـيرة، أمَّـا مـن محـل الجُملـة فإنهـا بــ250 فقـط. توجَّهتُ أنا وأخي للمحل، واشترينا الـسُّكَّر بالــ250 لـيرة التـي أعطيتنـا إيَّاها. ولأنني أنا الأصغر، فقد تولَّى أخي حَمل جِوال السُّكَّر. سـار بـضع خطوات، ثم وضعه على الأرض، مُتعَبًا. تنفَّسنا بعُمق، ثم حملنـاه معًـا. بعد خطوات معـدودة، تملَّـك التَّعـبُ منَّـا، فأنزلنـا الجِـوال. كـان ثقـيلًا للغايــة. استــسلمنا، في نهايــة الأمــر، وتوجَّهنــا إلى عربــة الكارِتَّــة

www.JudBooks.com

التي تقف وحصانها على رأس شارعنا. شرح أخي للحوذي موقع بيتنا، وسأله عن سعر توصيلنا. تفحَّصنا الرجل بنظرةٍ غريبة، ورمق جِوال السُّكَّر، ثم قال:

- خمسون ليرة.

لم نكن نعرف شيئًا عن الفِصال، ولذلك وافقنا على الفور. رفعنا الجِوال ووضعناه في العربة، ثم ركبنا ودلَّينا أرجلنا من الجانبين. كُنَّا نسكن في الطابق الخامس، ولذلك اضطر الحوذي لحَمل الجِوال إلى باب شقَّتنا. واقع الأمر أنه لم يكن يملك خيارًا، إذ لم يكن معنا أي نقود، وكان عليه أن يأتي معنا ليأخذ أجره. حين فتحتِ الباب لنا، أخبرناكِ بما حدث. في البداية، ظننتِ أننا نُمازحكِ، لكنكِ سرعان ما أدركتِ حقيقة الموقف، فذهبتِ للداخل، وعُدتِ بخمسين ليرة. وهكذا انتهى الأمر بأن دفعتِ المبلغ ذاته، الذي كنتِ ستدفعينه لصاحب دُكَّان شارعنا. ما لم تُدركيه حينها هو أنني وأخي كُنَّا نُعارض فكرة

www.JudBooks.com

احتكـار رأس المـال. كُنَّـا نـؤمن بـضرورة توزيـع رأس المـال عـلى أفـراد الشَّعب. بدلًا من منح الـ300 ليرة بأكملها لصاحب الدُّكَّان، أعطينا تاجر الجُملة 250، ومنحنا الــ50 المتبقيـة للحـوذي. كانـت تلـك هـي اللبنـة الأولى لحركتنـا الـسياسية المُزدهـرة، ولكـن بـسبب عـدم اقتناعـكِ بمـا فعلناه، تهاوت حركتنا قبل حتى أن تبدأ. أنتِ السبب في اعتماد "تركيا" عـلى اقتـصاد الـسوق المفتـوح! انظـري إلى أيـن وصـلنا! لا شـك في أن ضميركِ يُعذِّبكِ أشدَّ التعذيب!

ثم تلك المرَّة التي ملأتِ فيها علبة طعـام بزبـادي صـنعتِه بنفـسك، وطلبتِ مِنَّا توصيلها لجدُّو الحـاج. رحـتُ أنـا وأخـي نلهـو ونتـسكَّع في دروب الحارات الأربع التي تفصلنا عن بيـت جـدِّي. وصـلنا مـع بدايـة الظهيرة، وقد باغتنا التعب والإرهاق. قالت تيتة الحاجَّة:

- لا بُدَّ أنكما جائعَان.

www.JudBooks.com

أحضرت لنا خُبزًا، تناولناه مع الزبادي الذي أحضرناه. أكلنا بشهية، وأنهينا كل شيء. غسلت تيتة العلبة، وأعطتنا إياها. أخذناها وعُدنا إلى البيت. سألتينا:

- ما الذي أخَّركما؟

أجبناكِ بأننا تأخَّرنا لأننا تناولنا الغداء في بيت تيتة. سألتِنا ماذا أكلنا. قلنا:

- زبادي.

قلتِ بعدم تصديق:

- أرجو ألَّا يكون الزبادي نفسه الذي أرسلته معكما!

قلنا ببساطة ودهشة:

- هو نفسه طبعًا!

www.JudBooks.com

لأعوامٍ عديدة، كنتِ تُكرِّرين هذه القصَّة على كل مَن تعرفينهم، وتستغرقون جميعًا في الضحك، والسخرية مِنَّا. لم أرَ شيئًا عجيبًا في تصرُّفنا. كان كل ما حدث طبيعيًّا. فكَّرتُ في المسألة طويلًا، لكنني لم أتوصَّل لتحليلٍ منطقي لأحداث ذلك النهار، إلا وأنا داخل السِّجن. حين أرسلتِ الزبادي لتيتة وجدُّو، لم يكن ذلك لأنهما بحاجة إليه. كل ما في الأمر أنكِ أردتِ إسعادهما. أحسَّا بسعادةٍ بالغةٍ فعلًا، بمجرد وصول الزبادي إليهما، وما زاد من ذلك الإحساس هو رؤيتهما لحفيديهما وهما يتناولانه بشهية واستمتاع. كان هدفك هو خلق لحظة سعادة لهما، لكنني وأخي ضاعفنا سعادتهما، وجعلناها لحظتين! لذلك كان من الظلم أن تضحكوا علينا لستٍّ وثلاثين سنة، دون سبب وجيه. يا لكم من أشرار!

في العام ذاته كذلك، بدأتِ مشروعكِ الخاصّ بحياكة طاقيات الصلاة. تجلسين في البيت، ممسكةً بإبرة الـ"كروشيه"، تصنعين من الخيوط الاصطناعية طاقيات للصلاة، ثم ترسلينني و"نور الدين"

www.JudBooks.com

لبيعها. حسنًا، لم يـنجح المـشروع للدرجـة التـي توقَّعناهـا، لكـن سـوق طاقيات الصلاة سجَّل تراجعًا عالميًّا كبيرًا في تلك السنة، عـلى كـل حـال. لطالما وجَّهتِ لنا اللوم، مُعتَقِدةً أن السبب هو فشلنا في التـسويق. أمَّـا نحن - من جهـةٍ أخـرى - فلـم يخطـر ببالنـا أبـدًا التـشكيك في عيـوب عملية الإنتاج ذاتها! انتشرت في ذلك الموسم موضة الطاقيـات المغزولـة من خيوط ناعمة، بألوان فاتحة. ذلك على الأقـل مـا لاحظنـا أن النـاس تـشتريه مـن الباعـة المتقـدمين في الـسِّن. أمَّـا أنـتِ، فقـد أصررتِ عـلى مواصلة حياكة طاقياتك ذات الخيوط الغليظة والألوان الغامقة: نبيذي، وكاكي، وأسود، بالإضافة إلى الأحمر. بالـلـه عليكِ يا أمي! هل سـبق لـكِ رؤية طاقيات صلاة تجمـع بـين اللـونين الأخـضر والأحمـر؟ كـان علينـا، والحال هـذه، فـتح دُكَّـان طاقيـات أمـام سـتاد "ديـار بكـر" الريـاضي! أعني مَـن الـذي لا يرغـب في شراء طاقيـة صـلاة بلـون ملابـس فريقـه المُفـضَّل لكـرة القـدم؟ ظللنـا نحـاول بيـع بـضاعتنا، أمـام الجـامع الأكبر. على كل حال، انتهى بنـا الأمـر ببيـع أغلبهـا لجـدُّو الحـاج. كلـما

www.JudBooks.com

عانينـا مـن بُـطء حركـة البيـع، توجَّهنـا إلى دُكَّانـه. هنـاك، نأخـذ منـه بسكوت الـ"ويفـر"، ويأخـذ منَّـا طـاقيتين أو نحـو ذلـك. بعنـا لوالـدكِ عشرين طاقية على الأقل، واسمحي لي بأن أذكِّركِ بأنكِ صـنعت خمـسًا وعشرين واحدة فقط!

هناك كذلك تلك المَرَّة التي عاد فيها أبي مـن عملـه مُبكِّـرًا، ليتنـاول غداءه في البيت. قليلًا ما كان يفعل ذلك. لكنه اشتهى الطعام المنزلي في ذلك اليوم. أخذتِ تُعِدِّين المائدة عـلى عجالـة، وقمـتِ بإرسـالنا لـشراء الخبز من الدُّكَّان. لسببٍ ما، كلما قلـتِ "دكـان"، دون تحديـد الوجهـة بالضبط، ظننَّا أنكِ تقـصدين دُكَّـان جـدُّو. هـذه المـرَّة أيـضًا، تلكَّأنـا في طريقنا إليه، وتناولنا بسكوت الـ"ويفر" عند وصـولنا، ثـم عُـدنا للبيـت مُتمهِّلين. استغرَقَنا الأمر حوالي ثلاث ساعات. عند رؤيتنا، صحتِ بنا:

- أين كُنتما؟

من الواضح أنكِ أصبتِ بالقلق. أجبناكِ:

www.JudBooks.com

- في دُكّان جدُّو..

قُمتِ بسؤالي عن الخبز. التفتُّ نحو أخي، وكأني أقول: "هو المسؤول عن إحضار الخبز دائمًا، فلمَ تُوجِّهين كلامك لي الآن؟". كنتِ غاضبة، ولم تقنعكِ تبريراتنا. اضطر أبي لتناول طعامه دون خبز، في ذلك النهار. حسنًا، ليس لديَّ سبب معقول لهذه الحكايات، ولذلك فإني أقترح تجاوز هذه النقطة. على كل حال، كانت 1981 سنة صعبة بالنسبة لنا. لكن الأوقات الصعبة تنتهي تدريجيًّا يا أمِّي. تنتهي دائمًا. أُقَبِّل يديكِ، وأيدي جميع الأمهات في كل مكان.



www.JudBooks.com

11

وحيدٌ كالتَّاريخ



www.JudBooks.com

www.JudBooks.com

لم أكُن كثيرة الكلام مع أبي. يقولون إن الآباء يُحبُّون بناتهم على نحوٍ خاصٍّ، لكنَّ والدي لم يُشعِرني بذلك أبدًا. لطالما كان مُتحفِّظًا؛ ليس معي وحدي فحسب، بـل مـع كـل مـن حولـه. لم أره يومًـا يجـادل أمـي، أو يتـشاجر معهـا، لكننـي - في المقابـل - لم ألحـظ مُطلقًـا أيَّ نـوعٍ مـن العواطف الخاصَّة بينهما. أظن أن أمي تقبَّلتْ طباعه، وتقبَّلتْ حياتهما الرَّتيبة. ليس في ذاكرتي إلا مواقف قليلة، مُتباعدة، تجمع بيـنهما وهـما يُثرثران معًا، أو يضحكان من قلبهما.

كُنَّا نملـك حديقـة ورد كبـيرة في مدينـة "إسـبرطة" بجنـوب غـرب تركيـا. امـتهن والـدي بيـع الـورود. كـان وأمـي يـشتركان في رعايـة حديقتهما والاهتمام بمزروعاتها. لم يتجاوز أبي المرحلة الإعداديـة مـن تعليمه، أمَّا أمِّي فكانت تجهـل القـراءة والكتابـة تمامًـا. قبـل ولادتي، أنجبا طفلًا واحدًا، مات في عُمر الشهرين، ثم لم تحمل أمي بعدي. في طفولتي، كنتُ أعاونهما في الحديقة، لكن عملهما لم يجـذبني أو يُثـير

www.JudBooks.com

اهتمامي قَطّ. تطلَّعتُ دومًا لاستكمال تعليمي والالتحاق بالجامعة، وكان أبي يشجعني على هذه الخطوة.

اجتزتُ امتحانات القبول، وذهبتُ إلى "إسطنبول" لدراسة الهندسة. وباستثناء الزيارات القصيرة إلى مدينة "إسبرطة" خلال إجازات الصيف، فإنني لم أعد أتردَّد عليها. عندما ماتت أمي منذ خمس سنوات، أمضيتُ أسبوعًا مع أبي هناك، لكننا لم نتبادل كثيرًا من الكلام خلال تلك الفترة. احتفظ أبي بأحزانه لنفسه، لكنني أحسستُ بالخواء الذي خلَّفه رحيل أمي، في حياته وروحه.

كانت أمي هي الأقرب لي. اعتدنا أن نتحدث تليفونيًّا مرَّات عدَّة في الأسبوع الواحد. كُنَّا نتشارك أمورًا كثيرة. بعد إلحاحٍ طويلٍ منِّي، اقتنعتْ بزيارتي. أتتني في "إسطنبول" مرَّتين، وأخذتها في جولة لأهم معالم المدينة. لم أعبأ بدعوة أبي، لأنه كان سيرفض حتمًا. حين ماتت أمي فجأة، داهمني شعورٌ باليُتم. فقدتُ أمي، ولم أشعر أبدًا بأن لي

www.JudBooks.com

أبًا. لم أتوقع أن يحتلَّ مكانها في حياتي، وفي المقابل، لا أظن أنه توقَّع منِّي شيئًا كذلك. أعلم طبعًا أنه أحبَّني، كل ما في الأمر أننا لم نكن مُتقاربَين للدرجة التي تجعله يُظهر مشاعره، أو هذا ما أظنه على الأقل. المؤكَّد هو أنني لا أتذكَّر أبدًا أنه عاملني - ولو مرَّة - بشكلٍ سيئ، أو أنه رفع صوته مُؤنِّبًا. لطالما كان هادئًا وصامتًا. رجلٌ جيِّد.

بعد أن أمضيتُ أسبوعًا معه، قُلتُ له بأنني يجب أن أعود إلى "إسطنبول". أجابني:

- بالطبع يا حبيبتي. عليكِ أن تعودي لحياتك هناك.

أضاف مُطَمْئِنًا:

- لا تقلقي بشأني.

كانت تلك هي المرَّة الأولى التي أسمع فيها صوته مُختنقًا بكل تلك العواطف الجيَّاشة. قُلتُ له:

- لِمَ لا تأتي معي؟

www.JudBooks.com

كنتُ جادَّةً في عرضي، واندهشتُ أنا نفسي لذلك، لكنـه لم يُظهِـر أيَّ علامة على الاستغراب، وقال بهدوئه المُعتاد:

- شكرًا يا حبيبتـي، لكـن أوضـاعي هنـا جيِّـدة، حتـى الآن. كـما أن موسم الحصاد اقترب. عقب انتهائه، سأفكِّر بالخطوة التَّالية.

ودَّعته، وغادرت.

تكدَّس كثير من العمل خلال الأسبوع الذي غبته، وهكذا انغمـست في تنفيذ المهام المتأخرة، فور رجوعي، ما ساهمَ في انشغالي عن أحـزاني. كان لديَّ مكتبٌ هندسي أديـره مـع شريـكٍ لي، وكانـت أعمالنـا ناجحـة ومتميزة. سرعان ما بدأنا تنفيذ مشروعات عملاقة، لم نكـن نجـرؤ عـلى الحلم بها أصلًا. في تلك الفترة، كانت "إسطنبول" تخضع لحركـة تجديـد عمراني، والمدينة تضجُّ بالأعمال الإنشائية الكثيرة. نجحنا في اقتطاع جـزء لا بأس به من الكعكة لأنفسنا.

www.JudBooks.com

ربطت صداقة متينة بيني وبين "فرات"، شريكي في المكتب، منذ أن كُنَّا طالبين. في سنتنا الدراسية الأخيرة، تطوَّرت علاقتنا إلى حُبٍّ مُتبادَل. عندما أتت أمي لزيارتي في "إسطنبول"، قدَّمته لها. بعد قضائهما بعض الوقت معًا، قالت لي:

- حافظي عليه يا حبيبتي. إنه شخصٌ جيِّد.

تبعتُ نصيحة أمي، وتزوَّجته بعد مرور سنة على وفاتها. اتَّصلتُ بأبي لأبلغه بأنني سأتزوَّج. قال لي:

- خبر جميل يا حبيبتي، سعدتُ لسماعه.

أقمنا حفلًا صغيرًا، اتَّسم بالبساطة، لأصدقائنا المُقرَّبين. لم يأتِ أبي، لكنه اتَّصل بنا مساء ذلك اليوم، لتهنئتنا.

بعد نحو شهر على زواجي، اتَّصل بي ثانيةً، ليبلغني هذه المرَّة بأنه باع أرضه. أضاف:

www.JudBooks.com

- سأنتقل إلى مسكنٍ صغيرٍ في "فينيقيه"، يا حبيبتي. سوف أرسل لكِ العنوان، لاحقًا. لا تقلقي بشأني.

تمنَّيتُ له السعادة، وطلبتُ منه أن يتَّصل بي إن احتاج إلى شيءٍ. عقب أسبوعين، بعث لي برسالةٍ نصِّيَّة يخبرني فيها بعنوانه الجديد، في قريةٍ ساحليَّةٍ بـ"فينيقيه". قال أيضًا إنه بخير، ودعانا لزيارته والإقامة معه، في أيِّ وقت. كتبتُ له: "سنزورك قريبًا، بالتأكيد. اعتنِ بنفسك". بعدها، واظبتُ على الاتِّصال به، مرَّة واحدة شهريًّا على الأقل، للاطمئنان عليه. في أغلب الأحيان، كانت ردوده لا تتغيَّر، وتنحصر في كونه بخير وسعيدًا ومُستمتعًا بحياته عقب تقاعده عن عمله.

تميَّزت حياتي مع "فرات" بالاستقرار والسعادة، كزوجين، وكشريكين في العمل أيضًا. نعملُ ستَّة أيَّام في الأسبوع، ثم نقضي يوم الأحد في المنزل. مساء السبت، نلتقي أصدقاءنا في منطقة "باي أوغلو"، لنشرب قليلًا، ثم نتوجَّه جميعًا إلى السينما أو المسرح،

www.JudBooks.com

لنتخفَّف من أعباء أعمالنا الشَّاقَّة طوال الأسبوع. "فـرات" قـارئٌ ممتـاز. أنا أيضًا أحبُّ القراءة، لكنه يعشقها فعـلًا. يتـابع الإصـدارات الجديـدة باهتمام بالغ، ويقرأ ما يُكتَب عنها، ثم يذهب في إجازته الأسـبوعية إلى المكتبة، ويخرج منها مُحمَّلًا بأعداد كبيرة من الكتب. سرعـان مـا بـدأتُ أشاركه هذا الشَّغف، باهتمام أكبر. عنـدما تعجبـه أيُّ روايـة، يُعطينـي إيَّاها عقـب الانتهـاء منهـا، لأقرأهـا أنـا أيـضًا. أثـق في ذوقـه الأدبي، ولم يُخيِّـب ظنِّـي ولـو مـرَّة بروايـة دون المـستوى. في إحـدى الليـالي، كـان مُستلقيًا على الفراش، يقرأ روايـة جديـدة. حـين انتهـى، أغلـق الكتـاب ووضعه على صدره، وراح يحدِّق في السقف، مستغرقًا في التفكـير. قـال أخيرًا:

- ياه! هذا الرجل يجيد الكتابة حقًّا!

أضاف:

- إنها روايته الأولى، لكنها ممتازة.

www.JudBooks.com

مدَّ يده نحوي بالكتاب، قائلًا:

- اقرئيها. ستحبِّينها.

كان العنوان نفسه لافِتًا ومتميِّزًا.. "وحيدٌ كالتاريخ". المؤلِّف هو "حسن وفا كراداجلي". حسبما كُتِبَ عنه على الغلاف الخلفي، فإنه مهندس ميكانيكا متقاعد. غير مذكور معلومات أخرى ذات قيمة، ولكن يُفهَم أنه أكبر عُمرًا من الصورة التي اختاروا وضعها على الغلاف. تصفَّحتُ الكتاب سريعًا، ثم قُلتُ لـ"فرات":

- شكرًا، سوف أقرؤه لاحقًا.



شهدت المدينة هدم مبانٍ عديدة، وتشييد عمارات حديثة فاخرة مكانها، بسرعةٍ فائقة. كسبنا كثيرًا من المال، خلال هذه الفترة، وبخاصَّة من عقارات مشروع "فيكيرتيب - كاديكوي". تغيَّرت حياتنا تمامًا، ونجحنا في استثمار مدَّخراتنا عن طريق شراء وبيع

www.JudBooks.com

العقارات المختلفة. ربحنا أموالًا إضافية بهذه الوسيلة. تسارعت وتيرة العمل، وتزايدت معها رغبتنا المشتركة في كسب مزيد من المال؛ باختصار، تحوَّلنا إلى آلات. استهلكتنا تمامًا عملية جَمع الأموال، لدرجة أننا لم نعد نملك وقتًا لإنفاقها. وعدا المنظمات غير الحكومية التي كانت تحارب عمليات الهدم والإعمار، القائمة على قدمٍ وساق، فإن حياتنا كانت تخلو من المنغصات، بشكلٍ عامٍّ. أما بشأن سعادتي الشخصية، فالحقيقة أنني لم أعد أملك رفاهية التفكير في المسألة، نظرًا لضيق وقتي. في النهاية، كُنَّا نعمل ونكسب المال ونعيش معًا بشكلٍ جيِّد. لم نعد نمضي كثيرًا من أوقاتنا معًا، كما اعتدنا، لكن حياتي و"فرات" خَلَت من أيِّ مشكلات حقيقية.

أدمنتُ "وحيدٌ كالتاريخ" منذ الصفحة الأولى، لكن ضغوط العمل اضطرتني لقراءة صفحات معدودة من الرواية كل ليلة، قبل نومي. استسلمتُ بعد أسبوع، ومنحتها جزءًا أكبر من وقتي، بعد أن وصلت للمرحلة التي أفارق فيها الكتاب بصعوبةٍ شديدة. لم أستطع التوقُّف

www.JudBooks.com

عن التفكير بها النهار التالي، ولذلك غـادرتُ عمـلي في سـاعةٍ أبكـر مـن المعتاد، وأمسكتُ بها فور عودتي للمنزل. اتَّصل بي "فرات" ليخبرني بأنـه في موقع البناء، لكنه سيتوجَّه للمكتب بدلًا مـن الرجـوع للبيـت، وأنـه سيتأخَّر. انتهزتُ الفرصة للاستغراق في القراءة.

دخل "فرات" مُتمهِّلًا، في هدوء، كي لا يوقظني مـن نـومي. كنـتُ في الصفحة الأخيرة. سألني مندهشًا عن سبب سـهري حتـى تلـك الـساعة المتأخرة من الليل. لم أشأ تبديد تركيزي، فاكتفيتُ بإسكاته بسرعة:

- ششششش!

ظلَّ واقفًا في صمت، لدقائق عدَّة، إلى أن انتهيـت. راقبنـي بحـماسٍ بالغ. ما إن أغلقت الكتاب، حتى بادرته بالقول:

- يا له من كتاب! كنتَ مُحِقًّا، ولم تكن تُبالغ!

- صحيح، أليس كذلك؟ لقد مَسَّ مشاعري أنا أيضًا.

اقترب منِّي، مستطردًا:

www.JudBooks.com

- إنـه يلخِّـص معنـى الإحـساس بالوحـدة، حتـى لـو كنـتَ مُحاطًـا بكثيرين. في بعض الأحيان يا "نيرمين"، أفكِّر في جدوى ما نفعلـه.. أعنـي أننا نعمل بجدِّية، وباستمرار، ولكن ما المقابل، عـدا المـال؟ وعـلى ذِكـر المال، فإن كل هذه الثروة تملؤني بوحـدةٍ رهيبـة. هـذا يُخيفُنـي أحيانًـا. أشعرُ بأن تسلُّق السلَّم الاجتماعي سينتهي بنا في الفضاء الخارجي. كلما صعدتِ للأعلى، تزايدتِ الوحدة. تبتعدين عن الجميع، شيئًا فشيئًا، ثـم تكتشفين أنكِ بعيدة عن المجتمع بأكمله. أنتِ داخل فقاعـة خاويـة، لا تؤنسكِ سوى الوحدة. المؤسف أننا نركض ليلَ نهار محاولين الوصول إلى هنـاك. إننـا أشـبهُ بمخلوقـاتٍ بائـسة تختـار هَجـر أماكنهـا التـي تـضجُّ بالحياة، والذهاب إلى برِّية لا أثر لأيِّ حياة فيها.

طوال حديثه، بدا "فرات" كما لو كان يكلِّم نفسه. قُلتُ له:

- أنتَ مُحِقٌّ. حان وقت تغيير نظرتنا وأسلوبنا في الحياة.

أضفت:

www.JudBooks.com

- وكأن هذه الرواية كُتِبَت لنا خصِّيصًا. علينا أن نعيد تنظيم حياتنا، وتحديد أولوياتنا من جديـد. يجـب أن يتجـاوز تفكيرنـا حـدود أنفـسنا ومصالحنا فقط.

نظر "فرات" إلى عينيَّ، وقال:

- لديَّ فكرة يا "نيرمين"، فلنأخذ إجازة طويلـة. نحـن الاثنـين فقـط. يمكننا أن نغادر في الصباح. ستمنحنا الإجـازة فرصـة لإعـادة التفكـير في أوضاعنا. سنتحدَّث معًا، ونتناقش بعُمق. وهي فرصة لنَيل بعض الراحة كذلك. ما رأيك؟

تعمَّدتُ جعل نبراتي هادئة، وأنا أحاول إقناعه بتأجيل الأمر:

- ولكن لحظة.. لا يمكننا المغادرة في الغد، لدينا أعمالٌ كثيرة لم ننتـهِ منها بعد. سيتسبب سفرنا في فوضى عارمة.

لكننا، صباحًا، كُنَّا نضع حقائبنا داخل السيارة. لم نكـن مـصَدِّقين مـا نفعله. مـا إن ركبنـا الـسيارة، حتـى بـدأنا التخطـيط لتفاصـيل رحلتنـا.

www.JudBooks.com

قررنا أن يكون خط سيرنا هو الطريق الساحلي لبحـر "إيجـة"، عـلى أن تكون "فينيقيه" هي محطَّتنـا الأخـيرة. زيـارة سريعـة لأبي، ثـم العـودة مباشرةً. فور وصولنا لهذا الاتِّفاق، اتَّـصلتُ بـأبي أخـبره بأننـا في طريقنـا إليه، وأننا سنكون هناك بعد نحو عشرة أيام. أجابني:

- قودا بحذر يا حبيبتي. رافقتكما السلامة.

تنقلتُ أنا و"فرات" بين المناطق الساحلية، مُتمهِّلين. تبادلنا أحاديثَ حـول ماضـينا ومـستقبلنا. تناقـشنا في الوضـع الـسيئ للبلـد، والأحـوال الرهيبـة في العـالَم بـشكلٍ عـامٍّ، والتـدهور الثقـافي، والكـوارث البيئيـة، وتزايـد ظـاهرة الفرديـة، والعلاقـات الإنـسانية المبتـورة، وكيـف تبـدَّل مفهوم الحب تمامًا؛ ناقشنا كثيراً من المسائل الحياتية طـوال أيـام. حـين وصلنا إلى "فينيقيه"، كُنَّا نشعر بهدوء وسلام داخلي. كانت رحلتنـا معًـا بمثابة جلسات علاج نفسي.

www.JudBooks.com

كان أبي قد شرح لنا كيفية الوصول إلى القرية التي يـسكنها. نجحنـا في الوصول إليها، بعد صعوبةٍ طفيفة. تحت ظـلال أشـجار وارفـة، عـلى جانبي الطريق، تناثرت بعض الـدكاكين، وعـدد مـن المطـاعم الـصغيرة. على الغابة التي تعلو التَّلّ، رأينا نحو عشرين بيتًـا. توقفنـا أمـام مقهـى القرية، فرأينا أبي جالسًا مع ثلاثة مُسِنِّين، حول منـضدة خـشبية. مـا إن لمحنا، حتـى هَـبَّ واقفًـا، وأتى إلى الـسيارة، مبتـسمًا في سـعادة. عانقنـا بحرارة، ثم تمعَّن جيِّـدًا في "فـرات". كانـت تلـك هـي المـرَّة الأولى التـي يقابله فيها، رغم مرور عامين على زواجنا. كـان "فـرات" متهيِّبًـا اللقـاء، لكن ترحيب أبي الدافئ أزال مخاوفه تمامًا. عرَّفنا والدي على أصـدقائه، ثم اقترح أن نذهب إلى بيته. أصرَّ صاحب المقهى على تقديم الشاي لنا، لكن أبي مازحه قائلًا:

- الشاي الذي أعدُّه في البيت، أفضل وأحلى من شايك هذا أصلًا!

www.JudBooks.com

تقدَّمنا أبي، طالبًا منَّا أن نتبعه. مررنا بمطعم أسماك له حديقة من كروم العنب والأزهار المبهجة، ثم بمقهى ذي حديقة واسعة تتوَّزع فيها الطاولات والبرجولات. في الطريق لبيت أبي، رأينا كشكًا يبيع هدايا تذكارية ومصنوعات يدوية. وصلنا أخيرًا إلى منزل أبي. حديقة كبيرة، مليئة بشُجيرات الورد. بُنِيَ في أحد أركانها كوخٌ صغير جدًّا. تحت قوسٍ من النباتات المتسلِّقة، مقعدان عريضان من الخشب، تناثرت عليهما مخدَّات بتصاميم تراثية، وتتوسطهما طاولة خشبية كبيرة الحجم. جلسنا على أحد المقعدين، نتأمل الحديقة التي وضع فيها أبي خلاصة خبرته في الزراعة، فخرجت بهذا الجمال البديع.. وردٌ من كل لون، وأشجار فاكهة. إن مددتَ بصرك عبر أشجار الحديقة، يمكنك رؤية البحر بوضوح. تركنا أبي، ليحضر لنا الشاي. واصلنا تأمل المناظر حولنا، وتسلل إلينا شعورٌ بالارتياح والاسترخاء، فعدا صوت السيارات التي تمر على فترات متباعدة، وهي تهبط من التَّلِّ، لم نسمع سوى صوت الأمواج وهي تضرب الشاطىء،

www.JudBooks.com

وهمس النسيم الناعم، وأزيز حشرات الحديقة. فكرتُ في روعة المكـان الذي اختاره أبي لقضاء أعوامه الأخيرة، وفي الحقيقة أحسستُ بشيءٍ من الغيرة. كانت الرِّحلة قد أرهقتنا، وشعرتُ أنا و"فـرات" برغبـةٍ مُلِحَّـة في الاستلقاء على المقعد والاستسلام للنعاس. سرعان مـا عـاد أبي يحمـل في إحدى يديه إبريق الـشاي، وفي الأخـرى صـينية تعلوهـا الأكـواب. كـان للشاي مذاقٌ رائع. واصلنا الجلوس في الحديقة، وتكلَّمنـا معًـا لـساعاتٍ طويلة حول عملنا وأخبارنا، وحياة والدي الجديدة في القرية. كان قراره بالانتقال إلى هنا، عقب وفاة أمي، صـائبًا دون شـكٍّ. بـدا أكـثر حيويـة، ولديـه قـدرة أكـبر عـلى تبـادل الأحاديـث، عـمَّا قبـل، وإن كـان لا يـزال متحفظًـا بعـض الـشيء، وغامـضًا ربمـا. لعلـه لم يكـن غموضًـا عـلى الإطـلاق، وكـل مـا في الأمـر أن حياتـه رتيبـة وتقليديـة، ولـيس فيها ما يخبرنـا بـه. رؤيتـه بمـزاجٍ رائـق، أسـعدتني للغايـة. تمـسَّك بـأن نبيت ليلتنا في منزله، لكننا اعتـذرنا لـضرورة عودتنـا إلى "أنطاليـا" تلـك

www.JudBooks.com

الليلة، لنطير منها إلى "إسطنبول"، التي أعدنا إليها سيارتنا عبر خدمة توصيل متخصصة. استسلم أبي لإصرارنا على الرحيل، وقال:

- حسنًا.. فلنتناول العشاء معًا على الأقل!

ولأننا كُنَّا نشعر بجوعٍ شديد، لم نستطع مقاومة هذه الدعوة. توجَّهنا إلى أحد مطاعم الأسماك المنتشرة على الطريق الرئيسي. بدا واضحًا أن أبي على علاقة طيبة بالجميع، وأنه استطاع تكوين صداقات جيِّدة. جلسنا على إحدى موائد حديقة المطعم. كان الطعام لذيذًا وطازجًا للغاية، فالتهمنا المُقبِّلات والسلطات والأسماك بشهيَّة. بينما كُنَّا نشرب الشاي، قَصَّ علينا والدي بعض الحكايات والمواقف التي مَرَّ بها في القرية، بعينين تلمعان ببريق البهجة. ودَّعناه بعدها، وبدأنا رحلة العودة. طوال الطريق، تحدَّث "فرات" عن إعجابه الشديد بأبي وحكاياته، وعن ضرورة زيارته بشكلٍ مُنتظم.

www.JudBooks.com

حين عدنا إلى عملنا صباح اليوم التالي، كُنَّا نشعر بحيويةٍ بالغـةٍ، وكأننـا نقف على عتبة حياة جديدة. كُنَّا قد اتخذنا قرارًا بألا تقتـصر حياتنـا عـلى العمل والمال فقط. سوف نغيِّر أولوياتنـا، وسـنُولي اهتمامًـا أكـبر بالمـسائل الاجتماعية والسياسية. هذا على الأقل ما اتفقنا عليه، خـلال أيـام الرِّحلـة. قبل انقضاء أسبوعين على عودتنا، رجعتُ أنـا و"فـرات" لعاداتنـا القديمـة. الواقع أننا صرنا نعمل لساعاتٍ أطول عن ذي قبل. يبدو أن كل مـا قلنـاه، وكل ما عاهدنا أنفسنا عليه، لم يكن أكثر من اعترافات مُتبادلة، ومحاولات للتطهُّر من خطايا النجاح الباهر. كان ذلك نوعًا من أحلام اليقظة، التـي لا ضرر منها على الإطلاق.

لسنتين، استمرَّت حياتنا عـلى المنـوال ذاتـه. ازدهـرت أعمالنـا أكـثر، وانتقلنا لمكاتـب أكـبر. صـار لنـا فريـقٌ يتكـون مـن 12 مهندسًـا، يهـتمُّ بالأعمال اليومية البسيطة، بينما نتولَّى أنـا و"فـرات" إنجـاز المـشروعات الكـبرى. نعمـل بـسرعةٍ محمومـة، تُلاحقنـا مخـاوف الفـشل والإفـلاس وفقدان كل ما حقَّقنـاه. في بعـض الأحيـان، لم يكـن أحـدنا يـرى الآخَـر

www.JudBooks.com

لأيَّام عدَّة متواصلة. كُنَّا ننهار من فرط الإرهـاق، لـيلًا، لنـستيقظ فجـرًا ونهرع إلى المكتب أو أحد مواقع البناء لإتمام مزيد من المهـام والأعبـاء. الواقع أن الثروة التي جمعناها كانت تكفينـا لأكـثر مـن عـشر حيـوات مجتمعة. لم يكن لأيٍّ منَّا عائلة كبيرة وأقارب، ونظرًا لانشغالنا الدائم لم تخطر ببالنا فكرة إنجاب أطفال. كنا سعيدين، ولذلك ظننا مُخطئـين أن هذه هي السعادة ذاتها.



كنَّا نتسكَّع في "بيوجلو"، في إحدى أمسيات السبت، حين لفت نظرنا "بوستر" كبير في واجهة مكتبة يعلن عـن روايـةٍ جديـدةٍ لــ"حـسن وفـا كراداجلي"، تحمل اسم "وحده الحـبُّ يبقـى معـك". سـارعنا بالـدخول وشراء نسختين لنا. قال "فرات" بحماس:

- أرجو أن تكون في روعة روايته الأولى.

www.JudBooks.com

لم تحظَ "وحيدٌ كالتاريخ" بإعجـاب القُـرَّاء وحـدهم، بـل وبإعجـاب النُّقَّاد كذلك، كما تُرجِمَت إلى لغاتٍ عديدةٍ، وفازت بكثير من الجوائز.

أمـضينا اليـوم التَّـالي في المنـزل، نقـرأ الكتـاب الجديـد. اسـتغرقتنا القراءة تمامًا، حتى إننا لم ننتبه لعدم تناولنا الطعام إلا بحلـول المـساء، حين أعلن "فرات" ضرورة إعداد شيء نأكله. فعلنـا ذلـك عـلى عجالـة، حتى نعود للكتاب ثانيةً. القصَّة مُتميِّـزة. كانـت مـن القـوَّة بحيـث لم نستطع تركها لبعض الوقـت. واصـلنا القـراءة بقيَّـة اليـوم، وانتهينـا في وقت مُتقارب، نحو منتصف الليل. خرج "فـرات" مـن غرفـة المكتـب، فوجدني مستلقية على أريكة غرفة المعيشة، بعينين منتفختين مـن أثـر البكاء، وأنا أحملق في السقف. كانـت الروايـة الأولى عمـلًا أدبيًّـا بـالغ التميُّز، حفَّزنا على التفكير وتأمـل سـلبيات حياتنـا، ومحاولـة تغييرهـا، وإن فشلنا لاحقًا في تطبيق قرارنا بـالتغيُّر. الحقيقـة أنهـا أيقظتنـا مـن سُباتنا، وجعلتنا نـرى الخـواء بـداخلنا، رغـم كـل مظـاهر الـثراء التـي نتمتَّع بها؛ أمَّا هذه الرواية الجديـدة فكأنمـا كُتِبَـت عنَّـا نحـن الاثنـين

www.JudBooks.com

تحديدًا. تحكي عن حياتنا وِفق قواعد الآخرين، وعن حُبِّنا الضائع، وعن رغباتنا. كيف أن متطلبات السوق المُلِحَّة أطفأت نُورنا. سهرنا الليل بأكمله نناقش هذه المسائل، وغيرها. تحدَّثنا عن حياتنا وعلاقتنا ببعضنا، وعمَّا تبقَّى من عواطفنا العاصِفة القديمة، وعن الفخِّ الذي يُحاصرنا، وعن قُدرتنا على الفكاك منه. تكلَّمنا عن ثرواتنا المُتراكمة في البنوك، وتساءلنا إن كان بإمكانها ملء الفراغ الذي خلَّفه حُبُّنا الذي غاب عنَّا. لم يكن من السهل علينا الاعتراف بأننا، ومنذ فترة طويلة، بِتنا لا نرى في بعضنا سوى شريكي عمل فقط، لا أكثر.

أنهى "فرات" حوارنا بضحكة، أتبعها بالقول:

- يبدو أننا بصدد إجازة ثانية.

أجبتُه:

- أرجو ألا تكون خطتك هي السفر فجأةً، في ساعةٍ مُبكِّرةٍ، كما فعلنا المرَّة الماضية!

www.JudBooks.com

- كلَّا. سوف نُخطِّط لرحلتنا أوَّلًا، في الأيام المُقبلة.

- حسنًا. لمَ لا؟ والآن، علينا أن نذهب للمكتب.

تحمَّمنا، وتناولنا إفطارًا سريعًا، قبل أن نُجرجر جسدينا المُتعبين، اللذين لم يحظيا بأي قدر من النوم، إلى العمل.

كان المكتب أشبه بخلية نحل، لكن عقلي كان غائبًا ومُشتَّتًا في أحداث الرواية. أمضيتُ ساعات الصباح وأنا أطوف المكان دون هدف حقيقي، يثقلني الإحساس بالتعب. عند اقتراب الظهيرة، استسلمتُ وتكوَّمتُ فوق أريكة مكتبي المُكيَّف، وسرعان ما استغرقتُ في نومٍ عميق، لم يوقظني منه إلا رنين الموبايل. فتحتُ عينيَّ بصعوبة. لا أدري كم نمتُ، لكنني كُنتُ لا أزال مُرهَقة. يبدو أن "فرات" مَرَّ بي، فقد صحوتُ لأجد بطَّانيةً تُغطِّيني، ومخدَّةً تحت رأسي. مددتُ يدي بتثاقُل، وتناولتُ الموبايل من فوق المنضدة. كان الرقمُ غريبًا. فكَّرتُ

www.JudBooks.com

في إغلاق الصوت، ومُعاودة النوم، لكنَّ المُتَّصل كرَّر طلب رقمي أكثر من مرَّة. أجبتُ بصوتٍ يُغالب النُّعاس:

- آلو.. نعم؟

- "نيرمين"، عزيزتي؟

بدا أن المتحدِّث رجلٌ مُسِنٌّ.

- نعم. أنا "نيرمين"، مَن أنتَ لو سمحت؟

- أنا "سليم"، من "فينيقيه". أنا صديق والدك. أنا الصيَّاد.

- آه، نعم. العَم "سليم". أعتذر. لم أميِّز صوتك.

تملَّكني القلق، ما الذي جعله يتَّصل بي؟

- أنا آسف يا عزيزتي، لكنَّ والدكِ ليس بخير. إنه في المستشفى. هنا في "فينيقيه". من الأفضل لو تأتين حالًا.

وثبتُ واقفةً، فور سماعي لهذه الكلمات.

www.JudBooks.com

- ماذا به يا عمِّي؟ هل الأمر خطير؟ هل أنت معه؟

كرَّر عباراته مرَّةً ثانية:

- إنـه لـيس بخـير. مـن الأفـضل لـو تـأتين حـالًا. هـذا كـل مـا يمكننـي قوله..

أنهى المُكالمة. نقلتْ لي نبرات صوته مدى خطورة الوضـع، لكننـي لم أشأ التفكير في التفاصيل. حاولتُ التماسُك، واتَّصلتُ بـ"فرات" الذي كان في أحد مواقع البناء. شرحتُ له الوضع سريعًا، وطلبـتُ منـه مُلاقـاتي في المطار.

كان الوقتُ يقترب من منتصف الليل، حين وصلنا إلى المستـشفى. كان العمُّ "سليم"، وعدد مـن أهـل القريـة، بانتظارنـا أمـام المـدخل. وقوفهم في الخارج، على ذلك النحو، جعلني أدرك ما حدث بالـضبط. شعرتُ بأنني سـأقع مغـشيًّا عـليَّ، لـولا أن أسـندني "فـرات". لم تكـن علاقتـي بـأبي نمطيـة، ومـع ذلـك لم أتخيَّـل أن يهـزَّني رحيلـه بـذلك

www.JudBooks.com

الـشكل الموجـع. كـان أبي، ولم يعـد موجـودًا. في حديقـة المستـشفى، وضعت رأسي بين يديَّ، وانفجرتُ في البكاء.

عندما لم يخرج أبي ذلك الصباح، اقـتحم أصـدقاؤه الكـوخ، وعـثروا عليه ممددًا على فراشه بهدوء وسكينة، كـما لـو كـان نائمًـا. طلبـوا لـه الإسـعاف، لكـن الوقـت كـان قـد فـات. أرسـل الطبيـب جثمانـه إلى المشرحة مباشرةً. اتَّصلوا بي على الفـور. كـانوا جميعًـا في حالـة انهيـار. تحدَّثوا عن طيبته. قالوا إنهم تعاملوا معه بنوعٍ مـن الـبرود، في بـادئ الأمر، لكنه سرعان ما كسب ودَّهم وثقتهم، وصار واحدًا مـنهم. بيـنما كانوا يُعدِّدون مميزاته الكثيرة، كنتُ أنا ألعن نفـسي.. مـا الـذي كنـتُ سأخسره لو أنني منحته بعضًا من وقتي؟ شيئًا من اهتمامـي؟ صـحيح أنه كان متحفظًا في علاقته معي، لكنني أنـا بـدوري لم أحـاول التقـرب منه.

www.JudBooks.com

بعد أن هدأتُ قليلًا، سألني أصدقاؤه عن المكان الذي سيُدفَن فيه. باغتني السؤال، ويبدو أن ذلك انعكس على ملامحي، بوضوح. لم أفكِّر في تلك المسألة، مُطلقًا. الواقع أن فكرة موته لم تخطر ببالي أبدًا، من الأساس. الأسوأ من ذلك، أن أبي نفسه لم يخطر ببالي مُطلقًا طوال الأشهر الماضية. بعد بعض التردُّد، قُلتُ أخيرًا:

- أعلمُ أنه ما كان سيُمانع في أن يُدفَن هنا، لكن إن لم يكن لديكم أيُّ اعتراض، فإنني أودُّ دفنه في "إسبرطة"، بجوار قبر أمِّي.

أعلن الجميع أن قراري صائب. ناقشنا تفاصيل الجنازة، ثم أعلنتُ أن و"فرات" أننا سنُغادر في الصباح الباكر، فانصرف الحضور، ولم يبقَ منهم سوى العمِّ "سليم"، الذي قال لنا بحزم:

- هيَّا بنا. أنتما ضيفاي الليلة.

أجابه "فرات":

www.JudBooks.com

- هذا كرمٌ بالغٌ منك، لكننا لا نودُّ أن نزعجك. سنبيتُ الليلة في فندق. كما أن علينا أن ننطلق غدًا في ساعةٍ مبكرةٍ للغاية.

- هذا غير ممكن. يشرِّفني استقبالكما في منزلي. على كل حال، يمكنكما المبيت في بيت والدكِ يا "نيرمين".

أعجبتني الفكرة، فقُلتُ على الفور:

- بالطبع، هذا أكثرُ منطقية.

أومأ "فرات" برأسه مُوافقًا.

حين أضأنا النور في كوخ أبي، استطعنا رؤية جميع تفاصيل المسكن، من مكاننا، فهو عبارة عن صالة صغيرة تنتهي بغرفة نوم، ومطبخ صغير وحمَّام. الأثاث قليل جدًّا. مقعد عريض يماثل الاثنين الموجودَين في الحديقة، ومنضدة صغيرة، وسجادة "كيليم" قديمة. لفت نظرنا مكتب خشبي في مواجهة نافذة الصالة، أمامه كرسي. فوق المكتب، مصباحٌ كهربائي وعديد من الدفاتر، تشبه تلك التي كُنَّا

www.JudBooks.com

نـستخدمها في المدرسـة الابتدائيـة. هنـاك أيـضًا مجموعـة مـن أقـلام الرصاص. ذهب "فرات" لاستكشاف حجرة النوم والحمَّام. تناولتُ دفـترًا وتصفَّحته سريعًا. كل صفحة تمتلئ بخطٍّ أبي. أحد عشر دفـترًا بالـضبط، جميعهـا بخـطِّ يـده. إمـا أن أبي كـان يحـاول تحـسين خطِّـه، أو أنـه.. ماذا؟

أخذتُ الدفاتر كلها، وجلستُ على المقعـد الخـشبي. أقـرأ الـصفحة الأولى. تعقد الدهشة لساني. أحتاج إلى بـضع لحظـات، حتـى أسـتجمع قواي وتركيزي. أنادي "فرات". يأتي ويجلس بجانبي. أقول له وأنا لا أزال تحت تأثير الصدمة:

- اقرأ.

أناوله الدفتر. يقرأ العنوان، والجُمَل الافتتاحية بصوتٍ مُرتفع:

www.JudBooks.com

- "وحيدٌ كالتاريخ". هناك أوقات تشعر فيها بخـواءٍ تـامٍّ، حتـى وأنـا مُحاطٌ بأعداد هائلة من البَشَر. عندها، تكون الوحيـد في الكـون بـأسره الذي تدرك أنك موجود. أنت الذي رصف طريق الوحدة بالحجارة..

سكتَ "فـرات"، وواصـل القـراءة في صـمت، ثـم بـدأ يقلـب بقيَّـة الصفحات، يقرأ مقطعًا من هنا، وآخر من هناك. لاحظ أن أبي قد قـام بنسخ كتاب "حسن وفـا كـراداجلي" كلمـةً كلمـةً، في دفـاتره. في بقيَّـة الدفاتر، عثرنا على نَصّ رواية "وحـده الحـبُّ يبقـى معـك". لم نـصدِّق تلك الصُّدفة. يبدو أن أبي كـان يقـرأ الكتـب ذاتهـا، مثلنـا. لا بـدَّ أنهـا مسَّت روحه، مثلما حدث لنا، وهو ما يفسِّر حرصه على نسخها بدقَّة، ربما كي يستوعبها أكثر. في الواقـع، لم أتخيَّـل يومًـا أن لأبي القُـدرة عـلى قراءة مثـل هـذه الروايـات. وللمـرَّة الثانيـة، في اليـوم ذاتـه، يعـذِّبني إحساسٌ قويٌّ بالنَّدم، لأنني لم أعرف عنه الكثير. فـتَّش "فـرات" البيـت بحثًا عن نسخٍ للـروايتين، لكنـه لم يعـثر عـلى واحـدة. في تلـك الأثنـاء، اعتصرني الألم من جديد، لقد أقـام أبي في هـذا البيـت خمـس سـنوات

www.JudBooks.com

كاملة، ولم أدخله مرَّة. لم آتي إلا بعـد أن انتهـت حياتـه. لا جـدوى مـن ندمي وآلامي الآن.

صـباحًا، في طريقنـا إلى "إسـبرطة"، رافقنـا عـدد مـن أهـل القريـة للمُشاركة في الجنازة. وصلنا إلى المقابر مع اقـتراب الظهـيرة. تـمَّ الـدفن بعد صلاة الظُهر. أتى كثير من الناس. أكثر ممَّا كنتُ أتوقَّع. جـاء جميـع الأقارب من الطرفين، كما حضر عددٌ كبير من أصدقاء والدي. لم أسـتطع تمييز أغلبهم. كان قد مَرَّ وقتٌ طويلٌ للغاية منذ رأيتهم. حرص الجميع على تعزيتي ومُواساتي. أمام أحزانهم الصادقة، تجدَّد إحـساسي بـالخزي والنَّدم.

بعد انتهـاء الـدفن، غـادر النـاس تباعًـا. أخـبرتُ "فـرات" بـأنني أودُّ المكوث لبعض الوقت. وقف معي أمام قبري والـديَّ، شـابكًا سـاعِده في ذراعي. انصرف الجميع، عدا شخص واحد، ظل واقفًا عـلى مقرُبـةٍ منَّـا. التفتُّ نحوه، وأحسستُ أن ملامحـه مألوفـة، لكننـي لم أسـتطع تمييـزه

www.JudBooks.com

بالضبط. تقدَّم نحونا مُواسيًا. شـكرته. أحسـستُ بـأنني أعرفـه، لكننـي أحجمتُ عن سؤاله مَن يكون، حتى لا أبدو فظَّةً. لاحظ حيرتي، فقال:

- أنـتِ لا تعرفيننـي عـلى الأغلـب، لكننـي كنـتُ صـديقًا للمرحـوم والدكِ منذ الطفولة. ذهبنا إلى المدرسة معًا، لكنـه تـرك التعلـيم عقـب إنهائه للمرحلة الإعدادية، بينما واصلتُ أنا دراستي، والتحقتُ بجامعـة "إزمير". سافرتُ كثيرًا بحُكم عملي، لكنني مع ذلـك بقيـتُ عـلى اتِّـصال بأبيكِ. تقاعدتُ منذ بضع سنوات، وعـدتُ لأسـتقرَّ في "إسـبرطة". كنـتُ أزوره في "فينيقيه"، بين الحين والآخر، وأقضي معه أيام عدَّة في كل مرَّة. نصطاد فيها السمك، ونسهر الليل نتبادل الأحاديث.

أضاف مُتنهِّدًا:

- كُنَّا قريبَين من أحدنا الآخر.

قُلتُ بحرارة:

www.JudBooks.com

- أنا سعيدةٌ حقًّا بأن ألتقي أحد أصدقاء أبي. أتمنَّى لـو تعارفنـا مـن قبل.

ناولني بطاقة عمل، وقال:

- نُدير مؤسسة خيرية في "إسطنبول".

أردف ضاحكًا:

- مُرِّي بي إن استطعتِ، لأخبركِ شيئًا أو أكثر عن والدك.

حين قرأنا اسمه، صاح كلانا بدهشةٍ بالغة:

- إنه هو! غير معقول!

لم يكن الرجل الواقف بجوارنا سوى "حسن وفـا كـراداجلي"، كاتبنـا المُفَضَّل. قال له "فرات":

- ملامحك مألوفة إذن بسبب صُوَرك على الكتب!

قُلتُ بحماس:

- تشرَّفتُ بلقائك. الحقيقـة أننـي لا أزال غـير مُـصدِّقة بأنـك كنـتَ صديقًا لأبي منـذ الطفولـة! نحـن نعـشق رواياتـك. لقـد مَـسَّت حياتنـا بشكلٍ لن تتخيَّله.

بدا الرجل أكبر من صُوَره المُنتشرة. لا بدَّ أنها قديمة. ظهر الأسى على وجهه، لا شكَّ في أن موت أبي أحزنه بـشدَّة. اقـترب منِّـي "حـسن وفـا"، ونظر إليَّ قائلًا:

- أنتِ مُخطئة يا عزيزتي. إنها ليست رواياتي. أخذتُ كل كلمة منهـا من دفاتر أبيك.

في بادئ الأمر، ظننتُه يمزح. لكنه بدا جادًّا. استطرد شارحًا:

- في الأعوام القليلة الماضية، سكب والدك كـل مـشاعره وأفكـاره في تلك الدفاتر الموجودة في كوخ "فينيقيه". كلما زُرته، قرأ عـليَّ مـا كتبـه. وجدتُ كتاباته حسَّاسة وصادقة للغاية. حاولتُ إقناعه بنشرها، ووافـق بصعوبةٍ بالغة، تحت شرطٍ واحدٍ. قال لي حينها:

www.JudBooks.com

- لا أريد أن يُكتَب اسمي عليها. أرغب حقًّا في الحفاظ على حياتي هادئةً كما هي، هنا في "فينيقيه". إذا أردتَ نشرها، لا بأس، فلتفعل ذلك تحت اسمك أنت، ولتتعامَل أنت مع الفوضى والإزعاج وكل ما سيتبع مرحلة النشر!

أخبرتُه بأنني مُوافق، ووضعتُ له بدوري شرطًا. قُلتُ له:

- لا مانع، ولكن إن لاقت أعمالك نجاحًا، وبيعت بأعدادٍ كبيرةٍ، فإن ريعها سيذهب لدعم الأدباء الشباب، ولن نلمس منه قرشًا واحدًا.

أردف "حسن وفا":

- وهكذا، اتَّفقنا. في غضون عامين نُشِرَ الكتابان، وكما توقَّعتُ احتلَّا المراتب الأولى في قوائم الكُتُب الأفضل مبيعًا. والتزامًا بما اتَّفقنا عليه، استخدمنا المال في إنشاء مؤسسة خيرية لشباب الأدباء، في "إسطنبول".

أنهى كلامه بابتسامةٍ عريضةٍ. أنصتنا إليه بصمت، في دهشةٍ واستغرابٍ. صافَحَنا مُودِّعًا:

www.JudBooks.com

- قوما بزيارتي في المؤسسة.

التفت نحوي، وقال:

- على فكرة، لقد ترك والدك تلك الدفاتر لكِ. لم يشأ أن أخبركِ وهـو على قيد الحيـاة، وجعلنـي أقـسم باللــه بـألا أخـبر أحـدًا غـيرك. تلـك الدفاتر قيِّمة. إنها ليـست مجـرد مجموعـة مـن الأوراق. إنهـا شـهادته وخلاصة خبرته، التي تركها لكِ وللإنسانية بشكلٍ عامٍّ.

غادر المقبرة بخطواتٍ مُتمهِّلة.

واصلتُ تأمُّل قبر أبي، ثم نظـرتُ إلى "فـرات". انحنيـتُ عـلى الأرض، وتناولـت قبـضةً مـن الـتراب، ووعـدتُ أبي بعـدم الخـضوع لأيِّ شيء يُشعِرني بالخزي والنَّدم، أبدًا.

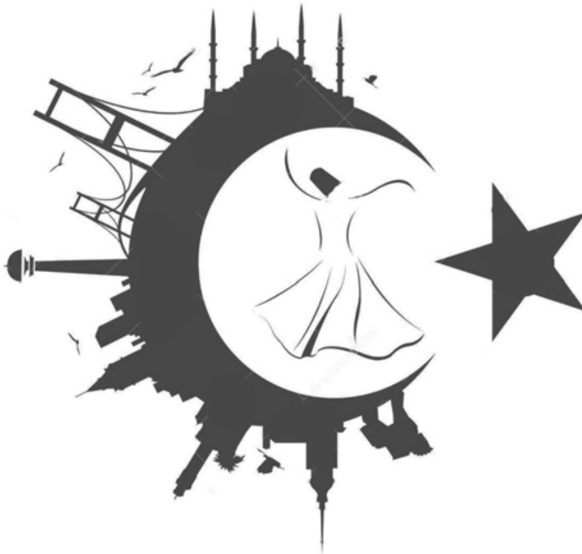
ملحوظة: العنوانان المختاران لروايتي البطل في هذه القصَّة، هـما مـن أبياتٍ للشَّاعر "مرادخان مونجان".

www.JudBooks.com

www.JudBooks.com

12

نهايةٌ رائعةٌ



www.JudBooks.com

www.JudBooks.com

كان اجتماعًا طويلًا في مقرِّ البلديـة. إنـه في طريقـه للبيـت، مُمتلئًـا بالـسَّعادة والحـماس. عَـبَرَ البوَّابـة، فوجـد أمَّـه في مكانهـا المُعتـاد في الحديقة، تعتني بمزروعاتها من الخـضروات. تـسلَّل وراءهـا بخفَّـةٍ، ثـم أحاطها بذراعيه وطبع قُبلةً على خدِّها. أخافتها المفاجـأة، حتـى كـادت تسقط أرضًا، لولا أن احتضن ابنها جسدها الضعيف. قالت له:

- ما الأمر يا بُنَيَّ؟ لقد أرعبتني!

أضافت مُمازحةً:

- يبدو أن مزاجك جيد اليوم.

- خبر حلو.. سأسافر إلى أمريكا لحضور مـؤتمر هنـاك. وقـع اختيـار مجلس البلدية عليَّ.

بلَّل الدَّمع عينيها. نظرت إلى ابنها بالفَخر ذاته الذي أحسَّت به حين سـافر للالتحـاق بكُلِّيَّـة الطـب، ومـرَّةً أخـرى حـين عـاد بعـد سـنوات إلى بلدتـه للعمـل طبيبًـا. كانـت حـاملًا بـه، عنـدما قتلـوا زوجهـا. لم

www.JudBooks.com

تتحسَّن أحوالها إلا بعد سنوات من الألم والمُعاناة. عندما بلغ ابنها سِـنَّ الالتحـاق بالمدرسـة، قـام مجلـس البلديـة ومجـالس الأحيـاء بتأسـيس مدارس جديدة، يتمُّ التعليم فيها بلُغتهم الأصلية. التحقت هـي نفـسها بمدرسةٍ منها، لتتعلَّم القراءة والكتابة، أخيرًا. هُنا، على ضفاف "دِجلة"، حيث ازدهرت الحـضارات القديمـة، تـمَّ مَـنح أراضٍ زراعيـةٍ لكُـلِّ مـن يُريـد، تـشجيعًا للـسُّكَّان عـلى مُمارسـة الزراعـة. حُفِـرَت قنـوات رَيٍّ جديدةٍ، تنقـل ميـاه "دجلـة" إلى الحقـول والحـدائق، مبـاشرةً. قامـت مجالس الأحياء بتأسـيس جمعيـات تعاونيـة، لبيـع منتجـات الـسُّكَّان وبـضائعهم، وبـذلك لعبـت هـذه الجمعيـات دورًا مُهـمًّا في تنـشيط تربية الحيوانات، وإعادة أحياء الصناعات اليدوية والمحلِّيـة، بالإضـافة إلى تـشجيع القطـاع الـسياحي. صـارت كـل بلـدةٍ في المنطقـة تتمتَّـع بالاكتفاء الذاتي، وبذلك فهم الـسُّكَّان معـاني العِـزَّة والكرامـة. تلاشـت عيوب الأزمنة الماضية، ولم يَعُـد النـاس يرزحـون تحـت وطـأة الفـساد والرشاوى والسرقة والـدعارة. تقـدَّم المجتمـع بخطـواتٍ سريعـةٍ. أدرك

www.JudBooks.com

أفراده بأن عليهم أن يتكاتفوا، كي تنشأ الأجيال الأصغر سِنًّا على مبادئ أخلاقية وقِيَم سياسية أكثر قوَّة وفاعلية. عرفوا أن مسألة التغيير لن تكون سهلة على الإطلاق، وأن التَّخلُّص من الإرث القديم من العادات السيئة لن يتحقَّق في خطوة واحدة، ولذلك قرَّروا بناء حيواتهم طوبةً طوبة. إنهم على وشك جعل البطالة والفقر شيئين من الماضي. في سبيل تحقيق نموذج ديمقراطي للاقتصاد الاجتماعي، عملوا على تخطِّي عوائق كثيرة، ونجحوا في تأسيس نظام جديد اتَّخذه العالَم قدوةً له، في النصف الأوَّل من القرن 21. قاموا باستغلال الطاقة الشمسية وطاقة الرياح لتزويد المدينة بالطاقة المُتجدِّدة. أمَّا سياسات التَّطوُّر المَدَني، فقد حافظتْ على احترام الطبيعة والتاريخ معًا. الرعاية الصحِّية مجَّانية، ومُتاحة للجميع. النظام القضائي عادل ومُنصِف. تعتمد مجالس الشعب على مبادئ اليمقراطية المباشِرة، وتتعامل مع الأمور المختلفة بعقلياتٍ مُتفتِّحة، وبخاصَّة تلك المُتعلِّقة بالنوع الاجتماعي (الجندرة) ومسائل الإيمان وأنماط الحياة.

www.JudBooks.com

لفتت كل هذه المسائل أنظار العالَم، واجتذبت إعجاب الجميع. مهَّدت إنجازاتهم الطريق للسلام الاجتماعي، ليس في منطقتهم فحسب، بل في البلد بأكمله. والآن، على الرغم من ماضيها الأليم، فقد صارت مثالًا يُحتذى به في التَّعايُش السِّلمي، ممَّا أكسبها احترام العالَم بأجمعه.

عقب تخرُّجه في كُلِّية الطب، عاد ابنها إلى مدينته، حيث قام المجلس بتعيينه في المركز الصحِّي العامِّ. سرعان ما أثبت ابنها، الذي يحظى بمحبَّة كل من حوله، براعته الفائقة كطبيب، وانتشرت سُمعته بين الناس كشخص متعاون وخَدوم، ومجتهد، ومتواضع كذلك.

في الانتخابات السنوية لمجلس البلدية، تمَّ اختياره أوَّلًا كمستشار، ثم كمتحدِّث رسميٍّ باسم المجلس. وعلى الرغم من حماسه لأنشطته الاجتماعية، فإن ذلك لم يؤثِّر مُطلقًا على عمله كطبيب. لطالما سعى للوصول إلى المكانة التي احتلَّها والده وعمُّه، اللذان لم يتسنَّ له لقاؤهما أبدًا، وها هو يوشك على تحقيق ذلك.

www.JudBooks.com

وجَّهت جامعة "هارفرد" دعوة لمجلس البلدية، كي يقوم بترشيح شخص يسافر إلى "بوسطن"، للحوار حول النموذج الناجح الذي تُقدِّمه المدينة للحُكم المحلِّي. وفي اجتماع اليوم، وقع اختيار المجلس عليه.

وعلى الرغم من أن المؤتمر لن ينعقد قبل شهر كامل، فإن الطبيب لم يستطع السيطرة على حماسه البالغ. للمرَّة الأولى، خلال عُمره المُمتد لـ 28 سنة، يذهب إلى أمريكا. عدا عن رحلة قصيرة إلى "لندن" لإنهاء دورة في اللغة الإنجليزية، فإنه لم يسافر إلى الخارج كثيراً. فكرة تمثيلُ شعبه، والحديث عن إنجازاتهم، ضاعفت من حماسه وسعادته. ولذلك، فإنه ما إن سمع الخبر، حتى بدأ في التفكير بما سوف يقوله، وسرعان ما أخذ يكتب كلمته. قُبَيل سفره، قرأ الكلمة على أعضاء المجلس، فقوبل بتصفيقٍ حادٍّ.

سيتوجَّه من مطار البلدة إلى "إسطنبول"، ومن هناك إلى أمريكا. صباح سفره، طلب من صديقه "باوِر" الذي كان يُقلُّه إلى المطار، أن

www.JudBooks.com

يتوقَّف في المقبرة أوَّلًا. اصطحب معه بعـض الأزهـار مـن حديقـة المنـزل، وزَّعها على أكبر عددٍ من القبور، مُحتفظًا بزهـرتين وضـعهما عـلى قـبرين مُتجاورين. اختنق صوته بمزيجٍ من الحزن والفخر، وهو يقول:

- رحمكما الـلـه..

على الشَّاهدين، كُتِبَ اسمي والده "أحمد تـونتْش"، وعمِّـه "محمـد تونتْش".

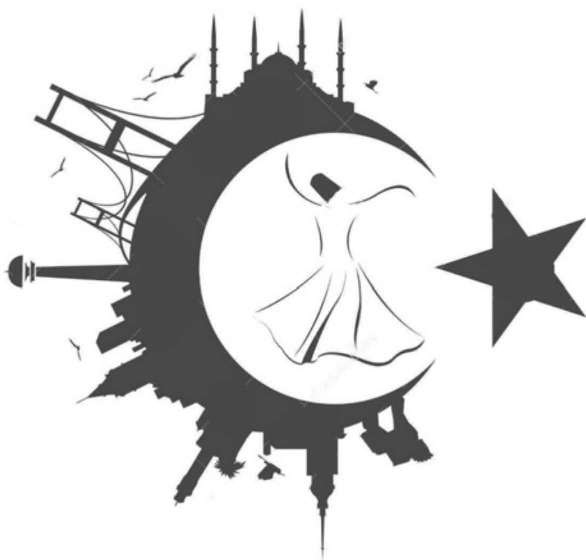
في المطار، عانق "باوِر" صديقه الطبيب بقوَّةٍ:

- تصل بالسَّلامة يا "بيكيز". استمتع برحلتك، أنـت مُـسافرٌ بالنيابـة عنَّا جميعًا.

كَبُر "بيكيـز" ابنًـا للـشعب، مُحاطًـا بمحبَّـة ورعايـة كُـلِّ مَـن حولـه، والمُفارقة أن ذلك يتناقض مع اسمه الذي يعني "يتيم".

www.JudBooks.com

بينما كان "بيكيز" يُلوِّح مُودِّعًا صديقه، أرسلتْ شمس بلدة "جـزرة" أشعَّتها الحارقة في كل مكان، مُعلِنةً بدءَ يـومٍ جديـدٍ عـلى ضـفاف نهـر "دجلة".



www.JudBooks.com

www.JudBooks.com

الفهرس

www.JudBooks.com

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

.1	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.2	اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
.3	جريمة في بوينس آيرس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.4	كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.5	نقطة الصفر	ناريج ماليان	أرمينيا
.6	مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
.7	قصص بسيطة: رواية من ألمانيا الشرقية	إنجو شولتزة	ألمانيا
.8	لأننا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
.9	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
.10	الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
.11	تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
.12	جريمة الساحر	أرني ثورارينسون	أيسلندا
.13	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
.14	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
.15	حذارٍ من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
.16	سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
.17	السيمفونية البيضاء	أدريانا ليسبوا	البرازيل
.18	مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.19	نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.20	أن تأتي متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
.21	صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
.22	مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
.23	جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
.24	أبسنت	أيفر تونش	تركيا
.25	أحلام محطمة	بيولنت سينوكاك	تركيا
.26	ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
.27	امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
.28	توباز	هاكان جنيد	تركيا
.29	ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
.30	جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
.31	جريمة في إسطنبول	أسمهان أيكول	تركيا

www.JudBooks.com

32. خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
33. ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
34. سحر	صلاح الدين ديمرتاش	تركيا
35. الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
36. الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
37. لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
38. مينتا	سوللماز كاموران	تركيا
39. نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
40. جرائم براج	ميلوش أوربان	التشيك
41. حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
42. حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
43. خريطة آنا	مارك سينديلكا	التشيك
44. ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
45. سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
46. كافكا	فرانز كافكا	التشيك
47. معسكرات الشيطان	ياخيم توبول	التشيك
48. المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
49. المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
50. العقل المدبر	دافيد أوجنر	جواتيمالا
51. شمس سبتمبر	بيروني رحيم	زيمبابوي
52. امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
53. خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
54. الحياة هنا	ميرال قريشي	سويسرا
55. ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
56. كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
57. الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	صربيا
58. بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
59. بنات الصين	يي مِاي	الصين
60. الربع الأخير من القمر	تشيه زيه جيان	الصين
61. رحلة الانتقام	جوو دا شين	الصين
62. سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين
63. النجمة الحمراء	يركسي هوللمانبيك	الصين
64. رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين

www.JudBooks.com

65.	المغفلون	إريك نويوف	فرنسا
66.	التطهير	صوفي أوكسانين	فنلندا
67.	المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
68.	عقيدة الأغنياء	ماريا تاسلر	كرواتيا
69.	النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
70.	صانع الزجاج	إيرميس لافازوناوفسكي	مقدونيا
71.	القنَّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
72.	الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
73.	إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
74.	صيف بارد جدًّا	روي ياكوبسن	النرويج
75.	حرية حزينة	فريدريگه جيزفاينَر	النمسا
76.	سمَّيته گرافَتَّة	ميلينا ميتشيكو فلاشر	النمسا
77.	دگّان الساري	روبا باجوا	الهند
78.	جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
79.	العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
80.	المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا
81.	تلك الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا

www.JudBooks.com

صدر من كتب عامَّة:

82. زيارة لمكتبات العالم: أشهر مكتبات بيع الكتب	خورخي كاريون	إسبانيا
83. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
84. الشاي: ثقافات وطقوس وحكايات	كريستوف بيترز	ألمانيا
85. قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
86. المختطفات: شهادات من فتيات بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
87. هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
88. الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
89. القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
90. الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
91. يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
92. خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
93. ضد الانتخابات: دفاعًا عن الديمقراطية	دافيد فان ريبروك	بلجيكا
94. أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
95. قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
96. مختصر تاريخ الصين	مايكل ديلون	الصين
97. لن أمنحكم كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
98. النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
99. جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
100. الجري	ثور جوتاس	النرويج
101. عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا
102. اللعب مع الكبار	يوريس لونديك	هولندا

www.JudBooks.com

www.JudBooks.com

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

1. في حب بابلو وكراهية إسكوبار	فيرجينا فالاجيو	إسبانيا
2. عندما تثور الشعوب	جيرو فون راندوف	ألمانيا
3. الحب في الأفلام	فيكتوريا فان تيم	أمريكا
4. اليوم الرابع	سارة لوتز	إنجلترا
5. أيام رائعة	رافاييل مونتيز	البرازيل
6. منزلنا في الأناضول	تاتيانا سالم ليفي	البرازيل
7. الأشياء الأولى	برونو فييرا أمارال	البرتغال
8. خريطة آنا	مارك سينديلكا	التشيك
9. بال خالٍ	أولجا سلافينكوفا	روسيا
10. يوغوسلافيا وطني	جوران فوجنوفيتش	سلوفينيا
11. الأخ الكبير	ماهير جوفان	فرنسا
12. دجاج مشوي	صوفي هيناف	فرنسا
13. صلوات ليلية	سانتيجو جامبوا	كولومبيا
14. لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
15. قصص خيالية	ألكسندر بروبوكيف	مقدونيا
16. دكتور مينجوس.. الأخ الكبير	خيسوس ريكاردو فيليكس	المكسيك
17. فرق التوقيت	ألموت تينا شميت	النمسا

#كتب_مختلفة #تركيــا



"لا تقلق يا بني. المسألة تحت السيطرة! ولكن حينما تحلم بشيء، فإنك تُغمض عينيك، عادة. بتلك الطريقة، يفشل الآخرون في رؤية حلمك ومعرفته. إنك تخبئ الحلم حتى عن نفسك. شخصيتك الحقيقية هي الإنسان الذي تكونه في الحلم".

"سَحَر" مجموعة قصصية تركية تحكي واقعًا مظلمًا لكثير من المجتمعات، لكنها لا تدعك تستسلم لليأس وتُفلت قبضتك من الإمساك بالحلم والأمل. إنها مجموعة من القصص تمزج بين الحب والفكاهة والطموح والسياسة، وتعكس صرخة مشاعر في وجه الظلم والألم، مجموعة قصصية إنسانية في المقام الأول قبل أن تكون سياسية. ورغم الاختلاف الكبير بين السياسة والفن، فإن صلاح الدين دميرتاش يجمع بمهارة بينهما في هذه المجموعة القصصية.



صلاح الدين دميرتاش

ولد عام 1973 في مدينة معمورة العزيز شرق تركيا. وهو سياسي كردي، وزعيم حزب الشعوب الديمقراطي اليساري الكردي. تخرج في كلية الحقوق في جامعة أنقرة ومارس المحاماة مباشرة، كما كان عضوًا لفترة في اللجنة التنفيذية لفرع دياربكر لمنظمة حقوق الإنسان التركية التي تأسست عام 1986، قبل أن يترأسه ثم يشكل مع آخرين جمعية حقوق الإنسان التركية ويؤسس مكتب دياربكر لمنظمة العفو الدولية. بدأ حياته السياسية عضوًا في حزب "المجتمع الديمقراطي" اليساري الكردي عام 2007 ونائبًا عنه في البرلمان قبل أن تحظره المحكمة الدستورية العليا عام 2009 بحجة ارتباطه بحزب العمال الكردستاني. أصبح لاحقًا نائبًا عن حزب "السلام والديمقراطية" اليساري الكردي الذي حظرته المحكمة للأسباب ذاتها، ثم أسس مع الصحفية والناشطة النسوية فيجي يوكسيكداج حزب "الشعوب الديمقراطي" عام 2014 الذي يحاول تجميع أجنحة اليسار السياسي في حزب واحد. خاض دميرتاش الانتخابات الرئاسية التركية عام 2014 وحل ثالثًا بـ9.77% من الأصوات. وهو أحد المرشحين لرئاسة تركيا في الانتخابات الرئاسية 2018، رغم كونه مسجونًا منذ نحو 20 شهرًا بتهم أمنية وليس هناك حكم بالإدانة ضده.



60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg





قهر سجن معاناة
حلب ظلم تركيا
فساد صراع